

مصطفى محمود

الإسلام..
ماهو...؟

الدين ... ما هو ؟؟

الدين ليس حرفة ولا يصلح لأن يكون حرفة .
ولا توجد في الإسلام وظيفة اسمها رجل دين .
ومجموعة الشعائر والمناسك التي يؤديها المسلم يمكن أن تؤدي
في روتينية مكررة فائرة خالية من الشعور ، فلا تكون من الدين
في شيء .

وليس عندنا زى اسمه زى إسلامي .. والجلباب والسروال
والشمروخ واللحية أعراف وعادات يشترك فيها المسلم والبوذي
والمجوسي والدرزي .. ومطربو الديسكو والهيبى لحاهم أطول ..
وأن يكون اسمك محمدًا أو عليًا أو عثمان ، لا يكفي لتكون
مسلمًا .

وديانتك على البطاقة هي الأخرى مجرد كلمة .
والسبحة والتمتمة والمحممة ، وسمت الدراويش وتهليلة

المشايخ أحياناً يباشروها المثلون بإجادة أكثر من أصحابها .
والرايات واللافتات والمجامر والمباخر والجماعات الدينية
أحياناً يختفي وراءها التآمر والمكر السياسى والفتن والثورات
التي لا تمت إلى الدين بسبب .

ما الدين إذن ... ؟!

الدين حالة قلبية .. شعور .. إحساس باطنى بالغيب ..
وإدراك مبهم ، لكن مع إبهامه شديد الوضوح بأن هناك قوة خفية
حكيمة مهيمنة علماً تدبر كل شيء .
إحساس تام قاهر بأن هناك ذاتاً علماً .. وأن المملكة لها
ملك .. وأنه لا مهرب لظالم ولا إقلاص لجرم .. وأنت حر
مستول لم تولد عبثاً ولا تحيا سدى وأن موتك ليس نهايتك ..
وإنما سيعبر بك إلى حيث لا تعلم .. إلى غيب من حيث جنت
من غيب .. والوجود مستمر .

وهذا الإحساس يورث الرهبة والتقوى والورع ، ويدفع إلى
مراجعة النفس ومحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئاً ذا قيمة
ويصوغ من نفسه وجوداً أرقى وأرفع كل لحظة متحسباً لليوم
الذى يلاقى فيه ذلك الملك العظيم .. مالك الملك .

هذه الأزمة الوجودية المتجددة والمعاناة الخلاقة المبدعة
والشعور المتصل بالحضور أبداً منذ قبل الميلاد إلى ما بعد
الموت .. والإحساس بالمسئولية والشعور بالحكمة والجمال

والنظام والجدية فى كل شيء .. هو حقيقة الدين .
إنما تأتى العبادات والطاعات بعد ذلك شواهد على هذه الحالة
القلبية .. لكن الحالة القلبية هى الأصل .. وهى عين الدين وكم
وجوهه .

وينزل القرآن للتعريف بهذا الملك العظيم .. ملك الملوك ..
وبأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله وآياته ووحدانيته .
ويأتى محمد عليه الصلاة والسلام ليعطى المثال والقُدوة .
وذلك لتوثيق الأمر وتتمام الكلمة .

ولكن بظل الإحساس بالغيب هو روح العبادة وجوهر
الأحكام والشرائع ، وبدونه لا تعنى الصلاة ولا تعنى الزكاة
شيئاً .

ولقد أعطى محمد عليه الصلاة والسلام القدوة والمثال للمسلم
الكامل ، كما أعطى المثال للحكم الإسلامى والمجتمع
الإسلامى .. لكن محمداً عليه الصلاة والسلام وصعبه كانوا
مسلمين فى مجتمع قريش الكافر .. فيبته الكفر . ومناخ الكفر
لم يمنع أياً منهم من أن يكون مسلماً تام الإسلام .

وعلى المؤمن أن يدعو إلى الإيمان ، ولكن لا يضره ألا يستمع
أحد ، ولا يضره أن يكفر من حوله ، فهو يستطيع أن يكون
مؤمناً فى أى نظام وفى أى بيته .. لأن الإيمان حالة قلبية ، والدين
شعور وليس مظهرة ، والمبصر يستطيع أن يباشر الإبصار ولو

كان كل الموجودين عمياناً ، فالإبصار ملكة لا تتأثر بعمى
الموجودين ، كما أن الإحساس بالغيب ملكة لا تتأثر بغفلة
الغافين ولو كثروا بل سوف تكون كثرتهم زيادة في ميزانها يوم
الحساب .

إن العمدة في مسألة الدين والتدين هي الحالة القلبية .
ماذا يشغل القلب .. وماذا يجول بالمخاطر ؟
وبم تتعلق المهمة ؟

وما الحب الغالب على المشاعر ؟
ولأى شيء الأفضلية القصوى ؟
وماذا يختار القلب في اللحظة الحاسمة ؟
وإلى أى كفة يميل الهوى ؟

تلك هي المؤشرات التي سوف تدل على الدين من عدمه ..
وهي أكثر دلالة من الصلاة الشكلية ، ولهذا قال القرآن .. ولذكر
الله أكبر .. أى أن الذكر أكبر من الصلاة .. برغم أهمية
الصلاة .

ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام لصعابته عن
أبي بكر .. إنه لا يفضلكم بصوم أو بصلاة ولكن بشيء وقر في
قلبه .

وهذا الشيء الذي وقر في قلب كل منا سوف تفاضل يوم
القيامة بأكثر مما تفاضل بصلاة أو صيام .

إنما تكون الصلاة صلاة بسبب هذا الشيء الذي في القلب .
وإنما نكتسب الصلاة أهميتها القصوى في قدرتها على تصفية
القلب وجمع الهمة وتحشيد الفكر وتركيز المشاعر .

وكثرة الصلاة تفتح هذه العين الداخلية وتوسع هذا النهر
الباطني ، وهي الجمعية الوجودية مع الله التي تعبر عن الدين
بأكثر مما يعبر أى فعل .

وهي رسم الإسلام الذي يرسمه الجسم على الأرض ،
سجوداً ، وركوعاً وخشوعاً وابتهالاً ، وفناء .. يقول رب العالمين
لنبيه :

﴿ اسجد واقترب ﴾ .

وبسجود القلب يتجسد المعنى الباطني العميق للدين ، وتنعقد
المصلة بأوثق ما تكون بين العبد والرب .

وبالحس الديني ، يشهد القلب الفعل الإلهي في كل شيء ..
في المطر والجفاف ، في الهزيمة والنصر ، في الصحة والمرض ، في
الفقر والغنى ، في الفرج والضيق .. وعلى اتساع التاريخ يرى الله
في تقلب الأحداث وتداول المقادير .

وعلى اتساع الكون يرى الله في النظام والتناسق والجمال ،
كما يراه في الكوارث التي تنفجر فيها النجوم وتتلاشى في الفضاء
البعيد .

وفي خصوصية النفس يراه فيها يتعاقب على النفس من بسط

وقبض ، وأمل وحلم ، وفيها يلقي في القلب من خواطر
وواردات .. حتى لتكاد تتحول حياة العابد إلى حوار هامس بينه
وبين ربه طول الوقت ..

حوار بدون كلمات ..

لأن كل حدث يجري حوله هو كلمة إلهية وعبرة ربانية ،
وكل خبر مشيئة ، وكل جديد هو سابقة في علم الله القديم .
وهذا الفهم للمشيئة لا يرى فيه المسلم تعطيلًا لحريته ، بل
يرى فيه امتدادًا لهذه الحرية .. فقد أصبح يختار بربه ، ويريد
بربه ، ويخطط بربه ، وينفذ بربه .. فالله هو الوكيل في كل
أعماله .

بل هو يمشي به ، ويتنفس به ، ويسمع به ، ويبصر به ، ويحيا
به . وتلك قوة هائلة ومدد لا يتفد للعابد العارف ، كادت أن
تكون يده يد الله وبصره بصره ، وسمعه سمعه ، وإرادته إرادته .
إن نهر الوجود الباطني داخله قد اتسع للإطلاق .. وفي ذلك
يقول الله في حديثه القدسي :

« لم تسعني سماواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي
المؤمن » .

هذا التصعيد الوجودي ، والعروج النفسي المستمر هو المعنى
الحقيقي للدين .. وتلك هي الهجرة إلى الله كدخًا .
﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه ﴾ .

ولا نجد غير الكدح كلمة تعبر عن هذه المعاناة الوجودية
المخلقة ، والجهد النفسي صعودًا إلى الله .
هذا هو الدين .. وهو أكبر بكثير من أن يكون حرفة
أو وظيفة أو بطاقة أو مؤسسة أو زيا رسميا .

أغمض عينيه وتجرد عن كل شيء حتى عن نفسه يلقيها هي
الأخرى وراء ظهره ، ويخرج من حلده إلى حالة من الخلو
والحر واللاشيء .. إلى راحة العدم ..

ويختار المبشر لكل واحد من أتباعه تسبيحة يرددها .. هي في
العادة كلمات سنسكريتية لا تعنى بالنسبة للمريد أى شيء ..
وسوف تعاون هذه التسبيحة المريد على أن يخرج من نفسه أكثر ،
ويتجرد من عالمه ويخرج من حضرة الهم والغم والتوتر إلى حضرة
أخرى مجردة تكون فيها راحته وخلاصه .

إنها دعوة إلى نوع من السكينة العقلية التي تأخذ فيها النفس
راحة وإجازة من معاناتها .. ورأيت مع المبشر كتباً ومنشورات
وبحوثاً علمية وإحصائيات تؤكد شفاء الكثيرين من ضغط الدم
والذبحة واضطراب الهرمونات والصداع المزمن بعد مباشرة هذه
الجلسات لمدة شهور .

وفي أحد هذه البحوث كان الطبيب يتابع ضغط دم المريض في
أثناء جلسة الاسترخاء فتسجل الأجهزة انخفاض الضغط
انخفاضاً ملحوظاً مع هبوط في تسارع النبض مع تغير في أخلط
الدم الكيمائية في اتجاه المزيد من التوازن .

وفي جلسة طويلة مع المبشر قال لي أنه ألقى عدة محاضرات في

الصلاة

آخر صبيحة في أمريكا الآن موضة جديدة اسمها
(Transcendental Meditation) وترجمتها الحرفية هي
الاستغراق التأمل المتجرد .. وهي موضة وافدة من الهند وبدعة
من بدع اليوجا .. وقد لاقت نجاحاً مكثحاً في المجتمع
الأمريكي شأنها شأن كل البدع الجديدة ، ووضعت فيها الكتب
والمؤلفات ، وأقيمت المؤتمرات وأصبح لها أتباع بالملايين ..
وأصبح لها رسل ودعاة ومبشرون ينطلقون إلى القارات الأربع
ومعهم الكتب والنشرات للدعوة للمذهب .. وقد التقيت بأحد
هؤلاء المبشرين في نادى الجزيرة يحاول أن يدعو لمذهبه .
والمذهب في اختصار شديد يدعو كل منا إلى أن يخصص بضع
دقائق من يومه بطرح فيها عن نفسه كل الشواغل ، ويلقى عن
باليه كل الهموم ويستلقى في استرخاء كامل على كرسي وقد

النادى مع تمارين توضيحية تشرح مذهبه .. ولكنه اشتكى من عدم التجاوب بين المستمعين وأنه لم يلاق الصدى والتجاوب الذى توقعه .

وقلت له إن هذا أمر طبيعى ومتوقع .. فما تقوله وما تبشر به ليس أمراً جديداً على أسماعنا .. بل إننا نباشر هذه التمارين بالفعل كمسلمين خمس مرات فى اليوم .. فهى جزء من صلاتنا الإسلامية التى أمرنا بها نبينا عليه الصلاة والسلام ..

فالصلاة عندنا تبدأ بهذا الشرط النفسى .. أن يتجرد المصلى تماماً عن شواغله وهمومه ، وأن يطرح وراءه كل شيء ، وأن يخرج من نفسه وما فيها من أطماع وشهوات وخواطر رهواجس هاتفاً .. الله أكبر .. أى أكبر من كل هذا ويضع قدمه على السجادة فى خشوع واستسلام كامل وكأنما يخرج من الدنيا بأسرها ..

ولكن صلاتنا تمتاز على التمرين الذى تبشر به .. بأنها ليست خروجاً من دنيا التوتر والقلق إلى عالم المحو الكامل وراحة العدم .. بل هى خروج إلى الحضرة الإلهية .. إلى حضرة الغنى المطلق .. ونحن لا نستعين بتساويح وطلاسم سنسكرينية لا معنى لها ، وإنما نسبح بأسماء الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لتمثل فى قلوبنا تلك الحضرة الإلهية الجمالية التى ليس كمثله شيء ..

وقلت له إن صلاتنا تعطى المؤمن كل الراحة والإجازة التى

تدعو إليها وزيادة .. فهى ليست مجرد سكتة عقلية ، بل صحوة قلبية وانفتاح وجداني تلقى فيه النفس شحنة جديدة من النور ونفحة من الرحمة ومدة من التأييد الإلهي .

إنها لحظة خصبة شديدة الغنى ، تعيد صلة المؤمن بالنبع الخفى الذى يستمد منه وجوده .

إن الانفصال عن دنيا النقص والشر والتوتر يواكبه الاتصال بعالم الكمال ومن هنا كان أثر الصلاة على المصلى مضاعفاً . وصلاتنا إذا صلاها المسلم بحضور كامل ، واستغراق وفناء واندماج ، فإنها تكون شفاء من كل الأمراض التى ذكرتها وأكثر .

وإذا أجريت البحوث والفحوص على ما يحدث فى أثناء الصلاة لضغط الدم والنبض ، وتسجيل المخ الكهربائى ، وأخلاط الدم الكيمائية ، لكشفت عن نتائج أكثر إبهاراً مما ذكرت فى تمارينك .. ولكن للأسف لا أحد فى أمريكا أو أوروبا يرى إسلامنا على حقيقته ولا أحد يحاول أن يبحث فيه .

ولهذا سوف تظل صلاتنا الإسلامية كنزاً مخفياً لا يعلم ما فيه إلا من باشره بحضور كامل .. يقول لنا الله « أقيموا الصلاة » ولا يقول صلوا .. لأن الصلاة الحقيقية إقامة تشترك فيها جميع الأعضاء مع القلب والعقل والروح ..

وخطأ الأوربي أنه يظن أن الصلاة « الإسلامية » هى مجرد

حركات وأنها على الأكثر مجرد اغتسال ورياضة « بدنية » ، ولهذا يقف عند ظاهر الأمر لا يخطئه ..

وينسى أن الحركات في الصلاة مجرد رمز فهي وقوف إكبار لله مع كلمة الله أكبر ، ثم ركوع ثم فناء بالسجدة وملامسة الأرض خشوعاً وخضوعاً ، وبذلك تتم حالة الخلع والتجرد والسكينة « الكاملة » النفسية .. ولا يبقى إلا استشعار العظمة لله تسييحاً .. سبحان ربي الأعلى وبحمده .. سبحان ربي الأعلى وبحمده ..

« وسبحان » معناها ليس كمثله شيء ، وهو اعتراف بالعجز الكامل عن التصور .. ومعناها عجز اللغة وعجز اللسان وعجز العقل عن وصف المحبوب .

وتلك ذروة « نفسية » في النجوى :

وتلك هي وقفة الأدب حينها بلغ جبريل سدره المنتهى فلم يستطع أن يتخطاها .. وقال لو تقدمت لا حترقت .

وليس بعد هذه الوقفة إلا التجليات والتنزلات للكاملين الذين يؤهلهم التجرد الكامل لاستشراق الأنوار .

فالصلاة هي المعراج الأصغر وهي نصيب المسلم من المعراج الأكبر الذي عرج فيه محمد عليه الصلاة والسلام إلى ربه . وهي ليست مجرد حركات .. بل هي أسرار ورحمات . وأشرفها وأرفعها صلاة الفجر التي تشهدها الملائكة .. وصلاة

قيام الليل .. التي نال صاحبها بها المقام المحمود .
والصلاة هي الرصيد المتاح من الرحمة لكل مسلم في البينك الإلهي .. إن شاء أخذ منه وإن شاء ضل عنه وتكاسل فأضاع على نفسه كسباً لا يقدر بمال ..
وما زالت الصلاة كنزاً مخفياً لا نعلم عن أسرارها إلا أقل القليل ولا ينتهي في الصلاة كلام .

ما تحب وتتحمل ما تكره .. أما إذا كان كل هيك هو الانقياد
لجوعك وشهواتك فأنت حيوان تحركك حزمة برسيم وتردعك
عصا .. وما لهذا خلقنا الله .

الله خلق لنا الشهوة لتنسلق عليها مستشرفين إلى شهوة
أرفع .. نتحكم في الهياج الحيواني لشهوة الجسد ونصعد عليها
لنكتفى بتلذذ العين بالجمال ، ثم نعود فتنسلق على هذه الشهوة
الثانية لتلذذ شهوة العقل إلى الثقافة والعلم والحكمة ثم نعود
فتنسلق إلى معراج أكبر لنستشرف الحقيقة ونسعى إليها ونموت في
سبيلها .

معارج من الأشواق أدناها الشوق إلى الجسد الطيني وأرفعها
الشوق إلى الحقيقة والمثال .. وفي الذروة .. أعلى الأشواق لرب
الكمالات جميعها . الحق سبحانه وتعالى ..
يقول الله في حديثه القدسي :

« يا بن آدم خلقتك لي وخلق الأشياء لك فلا تشتغل بما هو
لك عما أنت له » .

ولهذا سخر الله لنا الطبيعة بقوانينها وثرواتها وكنوزها ،
وجعلها بقطرتها تطاوعنا وتخدمنا فنحن لم نبذل مجهوداً كبيراً
لنجعل الجمل يحمل أثقالنا ، أو الكلب يحرس ديارنا ، أو الأنعام
تنفعنا بفرائها ولحومها وجلودها .. وإنما هكذا خلقت مسخرة
طائعة .. وإنما العمل الذي خلقنا الله من أجله والتكليف الذي

الصيام

الصيام من الشعائر القديمة المشتركة في جميع الأديان .
وهواة الجدل دائماً يسألون .. كيف يخلق لنا الله فماً وأسناناً
ويلعوماً ومعدة لتأكل ثم يقول لنا صوموا .. كيف يخلق لنا الجمال
والشهوة ثم يقول لنا غضوا أبصاركم وتعففوا .. هل هذا
معقول ..

وأنا أقول لهم بل هو المعقول الوحيد .. فإله يعطيك الحصان
لتركبه لا ليركبك .. لتقوده وتخضعه لا ليقودك هو ويخضعك ..
وجسمك هو حصانك المخلوق لك لتركبه وتحكمه وتقوده
وتلجمه وتستخدمه لغرضك ، وليس العكس أن يستخدمك هو
لغرضه وأن يقودك هو لشهواته .

ومن هنا كان التحكم في الشهوة وقيادة الهوى ولجام المعدة هي
علامة الإنسان .. أنت إنسان فقط في اللحظة التي تقاوم فيها

كلفتنا .. هو أن نركب هذه الدواب مهاجرين إلى الهدف .. إلى
الله .. إليه وحده في كماله ..

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾
﴿ وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .
وعبادة لا تكون إلا عن معرفة .

فالحياة رحلة تعرف على الله وسوف يؤدي بنا التعرف على الله
وكمالاته إلى عبادته .. هكذا بالفطرة ودون مجهود ، وهن نحتاج
إلى مجهود لنعيد الجميلة حياً ..

إنما تتكفل بذلك الفطرة التي تجعلنا ندوب لحظة التطلع إلى
وجهها ، فما بالنّا لحظة التعرف على جامع الكمالات والذي هو
نبع الجمال كله .. إننا نفنى حياً .

وما الصيام إلا التمرين الأول في هذه الرحلة

إنه التدريب على ركوب الفرس وترويضه وتطويبه بتحمل
الجوع والمشقة وهو درس الانضباط والأدب والطاعة .

وهذه المعاني الراقية « الجميلة » ليس منها ما نعرف في صيام
اليوم من فوازير ونكات وهزليات وصوائٍ ومكسرات وسهرات .
وإنما الصائم يفرغ نفسه للذكر وليس للتلفزيون .. ويخلو
للصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وتدبر معانيه وليس للرقص

وترديد الأغاني المكشوفة .

وقد كان رمضان دائماً شهر حروب وغزوات واستنهاد في
سبيل الله .

كانت غزوة بدر في رمضان .. كما كانت حرب التار في
رمضان .. وحرب الصليبيين في رمضان .. وحرب إسرائيل في
رمضان .

ذلك هو الصيام الرفيع .. ليس تبطلا .. ولا نومًا بطول النهار
وسهرًا أمام التلفزيون بطول الليل .. وليس قيامًا متكاسلاً في
الصباح إلى العمل .. وليس نرفزة وضيق صدر وتوترًا مع
الناس .. فانه في غنى عن مثل هذا الصيام ، وهو يرده على
صاحبه ولا يقبله ، فلا ينال منه إلا الجوع والعطش .
وإنما الصيام هو ركوب لدابة الجسد لتكدح إلى الله بالعمل

الصالح والقول الحسن والعبادة الحقة .
واسأل نفسك عن حظك من كل هذا في رمضان وستعلم إلى
أى حد أنت تباشر شعيرة الصيام .

الزكاة

كان من عادة إخواننا الشيوعيين حينما يذكر موضوع الزكاة أن يبتسم الواحد منهم في سخرية وكأغما وجد الثغرة التي ينفذ منها ، فالزكاة عنده هي الحل المخبجل لمشكلة العدل الاجتماعي ، فالعدل لا يعالج بالتسول وبتوزيع الصدقات ، وإنما بالبر والاستئصال والتمكين للمستقلين الظالمين ، ونزع أصحاب المال وأصحاب الأرض من جذورهم بانقلاب شيوعي يصحح الأوضاع ، وهذا التوصيف الشيوعي للزكاة خاطئ .

ولكن نبرة العنف في كلام الرفاق تذكرني دائماً برأى قاله المفكر الإسلامي المغربي الدكتور المهدي بن عبيد : ن الشيوعية ليست نظرية وليست مذهباً وليست فكراً كل هذا ثويه ، ولكن الشيوعية في الحقيقة طبع .. الشيوعية غل وحقد وضغن وطبيعة

نارية تنزع بصاحبها إلى طلب النكال والتكليل والإدلال والتسلط ، وهم لا يرون إصلاحاً إلا أن يكون برأ واستئصالاً دموياً وقلبياً لكل شيء من القواعد ، وهي طبيعة تلتبس دائماً المذهب الذي يساعد ، ومن هنا كان اختيارهم للشيوعية لا عن اقتناع ولا عن منطق ولا عن عقل ، ولكن عن طبع ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما مضى مذهب الخوارج والقرامطة والخرمية ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما بعد التكفير والهجرة ، لأنه يشبع فيهم نفس الطبيعة .

ثم نعود إلى تصور الرفاق عن الزكاة ونقول لقد فهموها خطأ ، فليست الزكاة هي تفضل من الغنى يلقي به للمفقر من باب حسنة لله يا محسنين ، وليست صدقة لتسول ، بل هي حق يؤخذ من خير مال القادر ، ويصل إلى يد المحتاج في كرامة ودون أن يسأل أو يعد يدًا ، فما يصل إليه حق وليس تفضلاً ، وحكمه حكم الضريبة التي تؤخذ بقانون وتنفق بقانون .

ثم إن الإنفاق ليس له حد أقصى فهو في حده الأدنى اثنان ونصف في المائة ، وتلك هي الزكاة المفروضة ، ولكنه مفتوح في حده الأقصى إلى ما شاء الله وما شاء كرم المعطى وإيمانه . ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ .

أي كل ما تراه زائداً عن حاجتك حتى ٩٩ في المائة مما تملك إذا اعتبرت أن حسابك لقمتك وثوبك وكفايك والباقي لله فهي

تجارة مع الله وتعامل مع الخالق وليست تفضلاً على الخلق ، ولكن مثل هذا الإنفاق الزائد ، لا يكون إلا تطوعاً واختياراً من صاحبه وليس فرضاً من أحد ، وهي من حيث اسمها « زكاة » ، فهي تزكية لصاحبها وتطهير له .. يتطهر بها من الشح والبخل والأنانية فالمنتفع الأول منها صاحبها .
والصدقات أوساخ الناس كلما أنفقت منها تطهرت وَصَفَتْ نفسك من تعلقاتها المادية الأرضية .

ولا ينقص مال من صدقة ، وما أنفقت من مال فإن الله يخلفه قد يخلفه الله مالا أو صحة أو رحمة أو ذرية صالحة أو نجاحاً أو توفيقاً ، ولكن لا بد من أن يشيب الله فاعل الخير دنیا وآخرة هذا قانون إلهي لا يتخلف ويعرفه تماماً الذين يقبلون على الزكاة ويتنافسون فيها والله لا يخلف وعده أبداً .

والزكاة تلطف الحقد وتكسر العين الحاسدة وتؤلف القلوب ، لأنها مال حلال يخرج من صاحبه حباً وكرامة وطوعية يصل إلى المستحق دوناً من ولا أذى .

وإذا أدخلنا في نصاب الزكاة ، زكاة الشركات وزكاة البنوك ، وزكاة المؤسسات التجارية ، وزكاة الدول التي خصها الله بالموارد والثروات ، فإن مجموع النصاب الناتج سيتجاوز المليارات عدداً ، وسيصبح في طاقته أن يغير موازين الاقتصاد الموجودة تماماً ، ثم إن إنفاق هذه المليارات بأسلوب عصري

واستثمارها لصالح الطبقة الفقيرة ، ولخلق المشاريع لتشغيل الأيدي العاطلة وبناء الصناعات . والارتفاع بالتعليم كفيل بأن يغير وجه الحياة دون عنف ودون قهر ودون نكال أوتنكيل .. هكذا تلتقي الأيدي في محبة وتعاون وتكافل فيثمر الخير مزيداً من الخير ، أما العنف الشيوعي فلن يثمر إلا عنفاً ، ولن يثمر القهر إلا رفضاً وكسلاً ولا مبالاة ، ولن يثمر التسلط إلا يأساً وسلبية وينتهي الأمر بأن ينفذ كل واحد يده من كل شيء ، ويقول لتفعل الدولة ما تريد ، ولكن الدولة في الشيوعية ليست كائناتاً حياً سوياً ، وإنما هي ديناصور ومسوخ شائه من القوى البوليسية والشعب الخائف المذعور ، ثم طواغيت ومراكز قوى تعمل طليقة باسم الحزب وتظلم وتستغل ، وتنهب كما تشاء باسم الحزب ، وتغطي جرائمها بالشعارات والأكاذيب والإعلام الموجه .

وشتان بين هذا التكوين الاجتماعي المتشجج وبين التكوين المتناسق للمجتمع الإسلامي الذي يعمل فيه الكل مؤمنين بأن العمل عبادة ، وأن الإنفاق تعامل شخصي مع الله ، وأن الصدقة تقع أولاً في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير ، وأن علاج المريض عبادة ، وإقامة جدار عبادة ، وإنشاء كوبرى عبادة .. وأن المعروف لا يضيع والعمل الصالح لا يذهب سدى ، وأن الملك له مالك ، وأن في السماء إلها عادلاً عدله لا يتخلف ، وكل هذا يثمر

سكنة ورضاً وراحة قلب تساوى الدنيا وما فيها .

فأين هذا من حال مجتمعات الوفرة والغنى التى ينتحر أصحابها برغم الوفرة ، وترتفع فيها إحصاءات الجنون والأمراض النفسية والقلق والاكتئاب برغم الغنى ، وتحل الأسر وتفكك العائلات وتنتشر المخدرات والشذوذ الجنسي والحرمان والسرقات ، برغم العلم والتكنولوجيا والقدم وتتضاعف أعداد مراكز البوليس وأقسامه ، ومع ذلك لا تشعر بلحظة أمن ولا تستطيع أن تخرج دولاراً من جيبيك ، ولا أن تنام دون أن تغلق المزاليج والترايبس خلف بابك .

لأنها مجتمعات مادية كل ملهم فيها محسوب بالكومبيوتر . ثم لا اعتبار عندها لأى شيء آخر .. أو بشكل أدق . لا تؤمن بأن هناك شيئاً آخر خارج اللحظة الحاضرة والدولار الذى فى جيبيك .. لا حساب لشيء اسمه الغيب ولا اعتقاد فى إله . والذين يؤمنون منهم بالله لا يدخلون هذا الإيمان فى حساب الكومبيوتر ، وهم لهذا يستبدلون الزكاة بشركات التأمين ومعاشات التقاعد وبدلات البطالة ، وكلها صدقات ، ولكن ذات منطلق مختلف ، فهى لا تعطى لوجه الله ، وإنما اجتهد علمى من عند صاحبها .. ولسان حال كل منهم يقول :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ .

وفارق كبير فى النية والصفائية بين العاملين فأحدهما يقول :

وفقى الله فأعطيت ما أعطيت ابتغاء وجهه . رآه بقلوبنا :

« اجتهدت من عندى وأنفقت وأعطيت »

فأحدهما لا يرى إلا الله والآخر لا يرى نفسه . ولهذا ينهى عمله إلى الإحباط أما نعمل الأول فإن به سر ، بكرمه ويحفظه برعايته .

وتلك هى لزكاة . مرهماً وبلساً وملطفاً رشداً لنفس ، وطهرة للقلب ، وهى تعامل مع الله رباً دوراً وديناً ، وإيمان بالعيب وثقة فى المقدور ، ويقين بقوانين الله . وهى التى لا تتخلف ، وهى شيء آخر تماماً غير مفهوم بحوره اجتماعية فى المجتمع الغربى وقد يسأل سائل فيقول أنهر كرامها عملاً صالحاً ..

فنتقول نعم مع فارق كبير فى العرفان ، فـ .. فى الزكاة لا تعرف لك يدأ ولا ترى لك يدأ ، ولا ترى لآية الله سبحانه الذى ليس كمثله شيء .

أما فى المعونة الاجتماعية بالكومبيوتر فلا ترى إلا الورقة المرقمة الخارجة من الكومبيوتر ، ولا ترى إلا يدك وما تبتذل . وعلى الأكثر لا ترى سوى إنسانيتك .

والفرق فرق عرفانى .

وهل الدين كله إلا هذه الكلمة الصغرى ذات الحروف لقليلة العرفان ؟ وهل طلب إله من نبيه سوى العرفان ؟

فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك .
وهل يفترق مؤمن عن كافر إلا بهذه المعرفة ، الذين يرجون
أيام الله ، والذين لا يرجون أيام الله ، والذين يوقنون بالآخرة
والموقف والحساب . والذين لا يؤمنون إلا بيومهم ولحظتهم ..
صدقوني إن كلمة الزكاة تعني الكثير ..

الحج

الجمعة .. الشمس تتحدر إلى المغرب على جبل عرفات .
الجبل مزروع بالخيام .. مليون وخمسمائة ألف حاح يحطون
عنده كالحمام في ثياب الإحرام البيض . لا تعرف الواحد من
الآخر .. لا تعرف من الفقير ومن الغني .. ولا تعرف من
التركي ومن العربي ؟ .
اختفت الجسيات . واختفت الأزياء المميزة واختفت
اللغات . الكل بلهج بلسان واحد .. حتى الجاوي والصومالي
والأندونيسي والزنجي والأذربيجاني الكل يتكلم العربية ..
بعضهم ينطقها مكسرة وبعضهم ينطقها بلكنة أجسية .. وبعضهم
يمد بعض الحروف ويأكل بعض الحروف ولكلك تستطيع أن تفهم
من الجميع وتستطيع أن سمع بهم يهفون . لييك الهم لسك .
والذين لا يعرفون العربية تراهم قد التفوا حول مطوف

هذا كان ديكورًا من ورق اللص .. من الخيش المثلج والدمود
المنقوش .

لا أحد قوى ولا أحد غنى .
إنما هي لحظات من القوة تغيبها لحظات من الضعف يتداولها
الناس على اختلاف طبقاتهم .

لا أحد لم يعرف لحظة النش ، ولحظة الضعف ، ولحظة
المحورف ، ولحظة التلق .

من لم يعرف ذل الفقر ، عرف ذل المرض ، أو ذل الحب
أو قساسة الوحدة ، أو حزن اللعد ، أو عار المضيعة أو حوان
الغسل أو خوف الحزبة .

بل إن خوف الموت يليق فوقنا ودوسنا جميعًا .
كلنا فقراء إلى الله . كلنا نعرف هذا .

وهم يعرفون هذا جيدًا .. ويشعرون بهذا تمامًا ، ولهذا
يكونون .. ويندرون خشوعًا ودموعًا .

سأنتي صديقي وهو رجل كثر الشك :

- وما السر في ثياب الإحرام البيضاء وضرورة لبسها على
اللاحم وتحريم لبس المخطط .. وما معنى رجم إبليس والطواف
حول الكعبة .. ألا ترى معنى أنها بقايا وثنية .

قلت له . أنت لا تكتفى بأن تحب حبك حبًا عذريًا
أفلاطونيًا ، وإنما تريد أن تعبر عن حبك بالفعل .. بالقبلة

وإستجد بعشرات الأدوية والمعايير .. ويكبح حوله الأطباء
ولا يفعل له العلم ولا الطب شيئًا .. وكانوا يقولون لنا في كلية
الطب على سبيل السخرية .. إن الأنفلونزا تشفى في سبعة أيام
بدون علاج .. وفي أسبوع إذا استخدمنا العلاج .

والأنفلونزا مرض بسيط .. فافه .. هي مثل من ألف مثل
لضعف الإنسان وحاجته وفقره الحقيقي منها كبرت في يده
الأموال وتعددت الأسباب .

من منا ليس فقيرًا إلى الله وهو يو له محمولًا وينهب إلى قبره
محمولًا وبين الميلاد والموت يموت كل يوم بالمائة مرات ومرات .

وأين الأباطرة والأكاسرة والقيصرة ؟

هم وأميراطورياتهم آثار .. حقائر .. خرائب تحت الرمال .
الظالم والمظلوم كلاهما رقادًا معًا .

والقتل والقتيل لقيا معًا نفس المصير .

والمتعسر والمهزوم كلاهما توسدا التراب .

انتهى القردود .

انتهت القوة .. كانت كذبة .

ذهب الغنى .

لم يكن غنى .. كان وهماً .

العروش والتيجان والعلياكس والمخز والمزير والديباج .. كل

واللقاء .. هل أنت وثنى ؟

وبالمثل من يسعى إلى الله بعقله وقلبه .. يقول له الله : إن هذا لا يكفي .. لا بد أن تسمى على قدميك .

والحج والطواف رمز لهذا السعى الذى يكتمل فيه الحب شعوراً وقولاً وفعلاً .

وهنا معنى التوحيد .

أن تتوحد جسداً وروحاً بأفعالك وكلماتك .

ولهذا نركع ونسجد فى الصلاة ولا نكتفى بخشوع القلب ..

فهذه الوحدة بين القلب والجسد يتجلى فيها الإيمان بأصدق مما يتجلى فى رجل يكفى بالتأمل .

أما ثياب الإحرام البيضاء فهى رمز الوحدة الكبرى التى تذوب فيها الأجناس ويتساوى فيها الفقير والغنى .. المهراجا وأتباعه .

ونحن نلبسها على اللحم .. كما حدث حينما نزلنا إلى العالم فى لحظة الميلاد وكما سوف يحدث حينما تغادره بالموت .. جثنا ملفوفين فى لفافة بيضاء على اللحم .. ونخرج من الدنيا بديات اللمة .

هى رمز للتجرد .. لأن لحظة اللقاء بالله تحتاج إلى التجرد كل التجرد .

ولهذا قال الله لموسى :

﴿ اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس . ضوى ﴾ .

هو التجرد المناسب لجلال الموقف .

وهذا هو الفرق بين لقاء لرئيس جمهورية .. ولقاء مع الخالق .

فنحن نرتدى لباس التشرىفة لتقابل رئيس الجمهورية .

أما أمام الله فنحن لا شيء .. لانكاد نساوى شيئاً .

وعلينا أن نخلع كل ثياب الغرور وكل الزينة .

قال صديقى فى حقبت : ورجم إبليس ؟

قلت :

- أنت تضع يافة ورد على نصب تذكارى لىحدى المجهول ،

وتلقى خطبة لتحيته .. هل أنت وثنى ؟

لماذا تعتبرنى وثنياً إذا رشقت النصب التذكارى للشيطان

بمحجر ولعنته .. إنها نفس الفكرة .

إنها كلها رمزيات .

أنت تعلم أن النصب التذكارى مجرد رمز ، وأنه ليس

الجندى .

وأنا أعلم أيضاً أن هذا التمثال رمز ، وأنه ليس الشيطان .

وبالمثل السعى بين الصفا والمروة إلى حيث نهبت عين زمزم

لتى ارتوى منها إسماعيل وأمه هاجر .. هى إحياء ذكرى عزيزة

ويوم لا ينسى في حياة النبي والجد اسماعيل وأمه المصرية هاجر .

وجميع شعائر ديانتنا ليست طقوساً كهنية بالمعنى المعروف ، وإنما هي نوع من الأفعال التكاملية التي يتكامل بها الشعور والتي تسترد بها النفس الموزعة وحدتها ..

إنها وسيلة لخلق إنسان موحد .. قوله هو فعله .. فالكرم لا معنى له إذا ظل تصريحاً شفويّاً باللسان ، وإنما لابد أن تمتد اليد إلى الجيب ثم تنبسط في عطاء ليكون الكرم كرمًا حقيقياً .. هل هذه الحركة وثنية أو طقساً كهنيّاً .

وبهذا المعنى ، شعائر الإسلام ليست شعائر ، وإنما تعبيرات شديدة البساطة للإحساس الديني .

ولهذا كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي بلا طقوس وبلا كهنوت وبلا كهنة .

ألا تراهم أمامك أكثر من مليون يكلمون الله مباشرة بلا واسطة ويركعون على الأرض العراء حيث لا محاريب ولا مآذن ولا قباب ولا منابر ولا سجاجيد ولا سقفون منقوشة بالذهب ولا جدران من المرمر والرخام .

لا شيء سوى العراء .

ونحن عراء .

ونفوسنا تعرت أمام خالقها فهي عراء .

ونحن نبكي .. كلنا نبكي .

وسكت صديقي وارتفعت أصوات التلبية من مليون وخمسمائة ألف حجرة .. ليك اللهم ليك .. ليك لا شريك لك ليك . وكنت أعلم أن صديقي مازال بينه وبين الإيمان الحقيقي أشواط ومراحل ومعراج من المعاناة .

مازال عليه أن يصعد فوق خرائب هذا البناء المنطقي الذي اسمه العقل ويستشرف على ينابيع الحقيقة في تدفقها البكر داخل قلبه .. حينئذ سوف يكف عقله عن اللجة والتقطع ويلزم حدوده واختصاصه ، ويدرك أن الدين أكبر من مجرد قضية منطقية ، وأنه هو في ذاته منطق كل شيء .. وأن الله هو البرهان الذي نبرهن به على وجود الموجودات لأنه قيمها (هو الذي أوحدها من العدم فهي موجودة به وبفضله) فهو برهان عليها أكثر مما هي برهان عليه .. وكيف يكون نعدم برهاناً على الوجود .. وكيف يكون المعدم شاهداً على موجد الوجود . إنها لاجابة العقل .. وهي سلسلة من الخرائب المنطقية لابد أن نمر بها في معراجنا للوصول إلى الحقيقة .. وهذا عبء العصر الذي يدعى فيه العقل كل شيء .

وعصرنا للأسف عصر العلوم الوضعية ونطق الوضعي .. هو عصر الألكترونيات والكهرباء والكيمياء والطبيعة . والواحد منا في بداية تلقيه لهذه العلوم الرضعية ، وفردط

انبهاره بها وبمجزاتها بتصور أنها علوم كلية يمكن أن يناقش بها الأمور الكلية مثل الوجود الإلهي فيقع في خطأ من يحاول أن يقيس السبيل بالشير ويزن الحب بالدرهم .

ونقضى عليه سنوات من التمزق والمعاناة قبل أن يكتشف أن الطبيعة والكيمياء علوم جزئية تبحث في المقادير والعلاقات واختصاصها هو القضايا الجزئية ، وهي لا علاج بطبيعة معاييرها للحكم على الدين لأنه قضية كلية .

الدين هو العلم الكلي الذي يحتوي على كل تلك العلوم . في حين لا يحتوي عليه أى منها .

وعندنا نور آخر نستدل به على الحقيقة الدينية ، نور القلب وهدى البصيرة واستدلال الفطرة والهداية .

هنا نور نستشف به الحقيقة بدون حثيات .

هنا منطقة في الإدراك هيأها الله للإدراك المباشر .

وهي مرتبة أعلى من مراتب الشعور العادى .

وكما أن العقل أعلى في الرتبة من حاسة مثل الشم واللمس ، كذلك البصيرة أعلى في الرتبة من العقل ومن الإدراك بالمنطق العقلى الجدلى .

والبصيرة هبة متاحة لكل منا ، ولكن صدأ العرف والتقليد والادعاء العقلى ، والأحكام الجاهزة الشائعة . هذا عدا الغرور وظلمة الشهوات والرغبات وسعار الأحقاد والمطامع .. كل هذه

الفواشى ترين على مرآة البصيرة فتحجب نورها الكاشفة . ويمضى العمر والإنسان يصارع هذه الرغبات ويتمزق . ويعانى ويسأل ويتساءل ويحفر ، في داخل نفسه حتى تنهتك الأستار ، وتتجلى الفواشى ، ويبدأ يدرك الحق ، بهذه الرؤية الكلية التى هى هبة بصيرته .

وهنا يبدأ يعرف ما هو الدين .

وقد يرى بالبصيرة من لا يحمل الشهادة .

وقد تعمى بصيرة المتعلم المؤهل في الجموع .

وجلاء القلب فضل إلهى قد يوهب وقد يكتسب ، ولا توجد شروط في المعارف الإلهية ، وهذا الهندي نسبه الفقير الخافى العارى الفارق في دموعه قد يعرف عن الله أكثر مما نعرف نحن الذين نكتب في الدين والله .

وربما لو سأله عن شعوره لما استطاع أن يشرح في عبارات مثل العبارات المنمقة التى نكتبها .. وهو أمر ناهم .. فالمعارف العالية قد تعلو على العبارة وقد تعجز عنها البشارة .. فلا يبقى إلا الصمت والدموع .

ولهذا هم يبيكون على عرفات في لحظة لقاء مع النفس والله .. تبدو فيها الكلمات مبتذلة .. واللسان عطفاً ، والعبارات خرساء ، فلا تبقى إلا الدموع ، وهى دموع فرح وحزن وبدم وتوبة وتطهر وميلاد .

وهي فجر روعي يعرفه من جربه .

وقد توحى اللحظة الواحدة والظرف الواحد بشبتين مختلفين تماماً وربما متناقضين . فحينها كنا نطوف بالكعبة في زحام من ألوف مؤلفة ، كان صديقي يلهث مختنقاً وكل ما يخطر له بالمناسبة هو تخيله لو كانت هذه الكعبة في أوروبا في برلين مثلاً ، إذن لا يختلف الأمر ولطاف حولها الأوروبيون في طوابير منظمة لا يزحم فيهم الواحد الآخر .. بينما كنت أنا أنظر إلى الألوف المؤلفة التي تدور كالذرات البيضاء وأرى فيهم الملايين بلا هوية ممن حجبوا وطافوا وعاشوا وماتوا .. أرى فيهم أبى وأمى .. كانوا هنا يطوفون منذ سنوات في هذا الزحام نفسه .. ومن قلوبهم جدى الذى جاء إلى هنا على ظهور الإبل .. ثم الأجداد .. وأجداد الأجداد من قبل إلى أيام النبی الذى خرج من مكة مهاجراً وعاد إليها فاتحاً .. كنت أنظر في الجموع الحاشدة من متفور تاريخي وفي خناق الزحام نسيت نفسي تماماً ، وفقدت هويتي ، ولم أعد أعرف من أنا .. هأنذا قد مت أنا الآخر .. وهذا ابني يطوف ويذكرني وهو يطوف ، ثم يموت ذات يوم ويصبح هو الآخر ذكرى . كانت لحظة روحية شديدة التوهج فقدت فيها إحساسى بذاتي تماماً ، وغبت عن نفسي وامتلات إدراكاً بأنه لا أحد موجود حقاً سوى الله .. وتذكرت السطر الأول من قصة الخلق . في البدء كان الله ولا شيء معه .

وفي الختام يكون ولا شيء بعده .
هو الأول والآخر .
هو ..

نعم هو ولا سواء .

كانت لحظة من المحو الكامل لكل شيء بما في ذلك نفسى ذاتها ، في مقابل ملء مطلق وملاء مطلق لموجود واحد مطلق هو الله .

وبالرغم من الإحساس بالغياب فإنه كان إحساساً في الوقت ذاته بالحضور .. الحضور الشامل المهيمن المألئ لكل ذرة من الشعور .. حضور ماذا .. ؟

وأحار في وصف تلك اللحظة ولا أجد الألفاظ ولا العبارات وأكتفى بأنها أعماق ما عشت من لحظات

إنها أشبه بعدة ستائر تفتح متتالية بعضها من وراء لبعض .. تفتح ستارة لتكشف عن مسرح صغير هو الواقع الفردي بتفاصيله ، ثم تفتح ستارة في العمق لتكشف عن واقع آخر خلفي كبر ، هو الواقع التاريخي يتلعق الواقع لأول بما فيه ثم تفتح ستارة ثالثة في العمق البعيد تكشف عن حقيقة اخفاق التي يبهت أمامها كل شيء .

هو إحساس ديني يصعب تصويره في كلمات
هو أشبه بموقف مقاتل على الجبهة .

إنه في تلك اللحظة ينسى همومه الصغيرة .

هموم وطنه تبتلع همومه .

وجراح وطنه تبتلع جراحه فينسى مشكلات بيته الصغير
وينوب في مشكلات مجتمعه الكبير .

هناك حضور أكبر ابتلع الحضور الأصغر .

وبالمثل لحظة الوقوف في حضرة الله .

هنا الحضرة العظمى .. حضرة الحق .

وهي حضرة هائلة تذوب أمامها الحواس تمامًا .

يفنى الواقع الصغير .. واقع النفس ومشكلاتها اليومية .. ثم

الواقع الزمنى المحيط بتفاصيله .. ثم الواقع التاريخي كله .

ثم يكون فناء النفس ذاتها في لحظة احتواء كامل من ذات
عظمى مهيمنة .

هي لحظة صوفية نعرفها في الحب .. ويروها لنا المحبون .

والحب البشرى لا شيء بالنسبة للحب الإلهي .

وجمال امرأة لا شيء بالنسبة للجمال للطلق الكلى .

أين كان صديقى من هذا كله ؟

ما أبعد كل منا عن الآخر مع أن ذراعى في ذراعه .. كان

يفكر ويمتلك ويرتب الحيشيات .

وكنيت أدوب حباً وقد قفزت بي اللحظة بوق حاجز العقل

وجاوزت بي الحدود والتفاصيل لتضعنى على ذروة أرى منها رؤية

كلية . وأدرك منها إدراكاً كلياً .

هو الحب .

والدين في جوهره حب .. والحج هجرة إلى بيت الحبيب

والطواف للعشاق .

هؤلاء لا يجدون فيه كلفة ولا تكليفاً .

وإنما يجدون حواراً مؤنساً .. ومكاملة من تلك المكالمات السرية

التي تضىء مجاهيل القلب .

وما أكثر ما شعرت به في الكعبة بما لا أجد له كلمات .

قد يسأل سائل : لماذا نتكبد المشاق لنذهب إلى الله في رحلة

الحج .. ولماذا هذه الهجرة المضنية .. والله معنا في كل مكان .. بل

هو أقرب إلينا من حبل الوريد . وهو القائل إنه ﴿ قريب مجيب

الدعوات ﴾ .. بل إن قربه لنا هو منتهى القرب .. فما الداعى

إلى سفر وارتحال لتقف فوق عرفة ندعوه منها .. وهو القريب منا

قرب الدم من أجسادنا .

والسؤال وجيه .

والحقيقة أن الله قريب منا بالفعل وأقرب إلينا من الدم في

أجسادنا ، ولكننا مشغولون على الدوام بغيره .

إنه لا يقيم دوننا الحجب ولكننا نحن الذين نقيم هذه

الحجب .. نفوسنا بشواغلها وهمومها وأهوائها تلفنا في غلالات

مكتنفة من الرغبات . وعقولنا تضرب حولنا نطاقاً من العرور

رقيب ؟ ولماذا يحرب والله شهيد ؟

والتوحيد أعمال وليس تامة وجمعة .

والشكر أعمال وليس الحمد لله على اللسان ..

يقول الله لآل داود ..

﴿ اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾

لأن المقصود بالشكر الأعمال لدالة على الشكر وليس

التمتة .. اعملوا آل داود شكراً .. اعملوا ..

والقرآن سياق متصل مستمر .. لكلمة اعملوا .. يبدأ بكلمة

« اقرأ » للعلم ..

وبعد العلم يكون العمل على مقتضى التوحيد .

وهذا هو الدين ..

قل : لا إله إلا الله واستقم على منهاها .

وهذه هي رحلة الهجرة إلى الله .. والحج والصلاة والصيام

صورتها البدنية .

والحج في معناه خروج .

خروج من أسماننا إلى أسماء الله .

وخروج من اعتدادنا بأنفسنا إلى الاعتداد به . وخروج من

العبودية للأسباب (المال والولد والأرض والعقار والنسب

والسلطة والسفوذ والجاه) إلى عبودية له وحده باعتباره سبب

الأسباب .

ومعه الاكفاء المشيع بصحية المالحق والانتاس به .

ولا يفهم من هذا تراكل .. لأن الرجل يصف ما بينه

وبين الله وليس ما بينه وبين الناس .. ولو أنه وجد بين الناس

شيئاً لقومه بالسيف .. فهذا الرجل نفسه هو المقاتل أبو نذر

وأمثاله .. وهو نفسه الذي يثور على المحاكم الظالم .. فالامثال لله

شيء غير الامثال لعباد الله ، بل هو عكسه ونقيضه ،

فخادم الله هو أول من يثور على عباد الله دون خوف ..

والخائف من الله لا تساوى عنده الدنيا شيئاً فهو أول من

يضحى بها وينغمسه تحت ظلال السيوف في سبيل كلمة حق .. لأن

الله عنده هو الحق .. وعشق الله هو الموت في سبيله .

وهذا هو توكل الإسلام وهو غير تراكل الكسالى الشحاذين

من مفترشى الأرصفة .. وهؤلاء ليسوا مسلمين أصلاً .

وليس كل من يتمتم :

﴿ قل هو الله أحد ﴾ بحسب موحد .

والهم ماذا تقول أعماله ..

إذا كان يعتقد حقاً أن الله أحد لا سواه ، هو الضار النافع .

فلماذ يد اليد إلى غيره ولماذا يتزلف ولماذا يتطلى ، ولماذا يكذب

المال والمقار وهو يعلم أن الله هو المالك. الوحيد للأرض

وما عليها وهو الوارث لكل ؟ ولماذا يكذب والله سميع ؟ ولماذا

وسراج لا نهاية له .. لأن كمال الله لا نهاية له .

وهكذا يقطع المهاجر إلى الله مرحلة بعد مرحلة حتى يصل إلى .
البقاع ، فيبقى عن نفسه ويوت عن صفاته ويصبح حاله في
الظاهر والباطن حال من يحيا بالله ، وحينئذ يحق عليه القبول .
وليس ثوب الإحرام على المرى فهذا هو ثوب الميت المولود ..
وهو ثوب من فطمين رمزاً لستر العورة الظاهرة وستر العورة
الباطنة .. والحياء هنا على وجهين حياء من الخلق وحياء من
الخلق .. حياء من سوء الخلق الظاهر الذي تعرفه الناس ، وحياء
من العورة الباطنة التي لا يراها إلا الله .. ومن هنا كانت
المرقتين الرمزيين .

أما النحر والذبح فهو في حقيقته ذبح للنفس ورغباتها
وشهواتها وأهوائها .. وقد اقتدى الله بنفسه بذبح الضحية ..
فتضحى ببعض مالك رمزاً لقتل شهواتك وهوى نفسك .
أما تقبيل المجر الأسود فهو ترود من غائب ، فأنت تضع
شفئك حيث وضع النبي شفئيه .

والحكايات عن أصل المجر الأسود والكنية كثيرة .. فهي
بيت العبادة الأول اتخذه آدم وأرشمه جبريل إلى مكانه .. وحينما
عرفت الكنية في الطوفان استودع الله المجر في جبل
أبي قيس .. وظل الأنبياء بطوفون بمكان الكنية حتى جاء
إبراهيم فأقام قواعدها وأعاد جبريل المجر إلى مكانه .

وخروج من حولنا وقوتنا إلى حوله وقوته .
وخروج من إرادتنا إلى إرادته ، ومن رغبتنا إلى رغبته يقول
نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :

« اللهم بك انتشرت ، وبك آمنت ، وبك اعتصمت . اللهم
بك أصول وبك أجول »

« اللهم بك أصبحت وبك أمسيت ولا فخر لي »
ويقول عن الخلق :

« من خرج يريد الطواف خاض في الرحمة »
وتفسير الرحمة إن الله يجذب همه عبده إليه ويغمسها من
الغرق .

ويقول عن الركوب للسفر :

« فإذا ركب الحاج الرحلة في الظاهر يشهد في السر أن الله
الذي يجعله » وهي ذروة في التوحيد ، فهو لا يعود يرى
الله أو النظار أو الطائرة ، وإنما الله هو الذي يحمل المسافر
ل ، أسبابه وقوانينه .. تختفي الأسباب ليظهر ، المسبب ويختفي
لله ، ليظهر الخالق .

وهكذا تكون كل خطوة بالقدم تراقبها خطوة بالقلب إلى
« من التوحيد .. ويكون مع طي الأبعاد طي داخل للصفات ،
ب العبد بصفاته من صفات ربه ، فيكون الرحيم الكريم
الودود الرؤوف الصبور الشكور ما استطاع .. وهو صود

وفي عام مولد النبي كانت غزوة الفيل المعروفة وهدم الكعبة كما أنه في عام ٣١٧ هجرية هجم أبو طاهر القرمطي على مكة وقتل وسبي ثم اقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى الأحساء .. وقد تبرأ عبد الله المهدي من فعل أبي طاهر ومن أخذه الحجر الأسود وقتله الحجيج ، فبعث إليه برد الحجر الأسود ، ولكنه لم يستجب وبقي الحجر ٢٢ سنة ثم نقل إلى الكوفة عام ٣٣٩ هجرية ، ومنها أعيد إلى مكانه في البيت .

ويرد بعض المؤرخين اقتلاع القرامطة للحجر الأسود إلى محاولتهم إبطال الحج وهدم الإسلام ، وإظهار عبادة النار ويرى آخرون أن الصراع كان سياسياً بحتاً ، وكان المقصود منه محاربة عقيدة أهل السنة .

فالكعبة لم تسلم إذن من التخريب والهدم والسلب والنهب ... وعبر التاريخ لم يبق فيها حجر على حجر . لم يبق فيها إلا مكانها .

هي رمز

ولا يصح تقديسها إلا رمزاً
وشأنها شأن القرآن حينما يقول عنه الله :

﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾

فلا يكون المقصود هنا « المصحف وورقه » .. لأن المصحف وورقه مادة شأنها شأن كل المواد يجري عليها العطب والفساد ..

فإذا جرى البلى والفساد على الورق لا يكون في ذلك مهانة للدين .

وإنما المراد هنا المعنى العميق .. « لا يمسه إلا المطهرون » .. أي لا يمسه معاني القرآن ولا يفهم أسرارها إلا النفوس المطهرة من أهوائها .

وبالمثل تقوم الكعبة كرمز .. لا كحجارة .

والحج والطواف والذبح والرجم وعرفة رموز .

فإذا تجاوز تقديس البقعة إلى تقديس الحجر ، خرج المؤمن عن إيمانه وسقط إلى حضيض الشرك والوثنية ، وما هكذا مراد الله بالكعبة .

والذي يسأل لماذا يكون الطواف سبعة أشواط والرجم سبع حصوات .. نقول له ولماذا لا يكمل نحو الجنين إلا في الشهر السابع ؟ ولماذا يولد ميتاً إذا نزل قبل السابع ؟ ولماذا تكتمل النوتة الموسيقية بالدرجة السابعة فلا تكون النوتة لأعلى بعد ذلك إلا جواباً للنوتة الأولى ؟

إنه سر في بناء الكون المادى والروحي إنه سباعى التكوين ، وإن السبعة هي درجة الاستواء والتمام .

والنفس البشرية بالمثل سبع درجات . أسفلها النفس الأمارة ، ثم تليها النفس اللوامة ، ثم النفس الملهمة ، ثم النفس

وكان أمراً عجيباً أن يبدأ البحر وتقلع الرياح وتنتهى
عاصفة ، ويتجوى وحده ومعها ذهابه بهذه الطريقة التى تبدو
كالمعجزة .

وتدمع عينا الجد ويومض بصره الكليل ، وكأنما يرى شريطاً
سريعاً من اللقطات الرهيبة .. ويروى كيف قضى ليلتين فى البحر
ثم انتشله مركب شراعى آخر قاصداً إلى الحج .. وكيف أتم
حجته السابعة ثم عاد بسلام .

ويروى كيف كان الموت يترصد الحاج فى كل خطوة فى البحر
وفى البر وفى الصحارى .. وبين الحر المحرق والرمال والعطش إذا
ضل طريقه أو ماتت راحلته .. وعلى أبهى قطاع الطرق إذا ألقى
به سوء حفظه إلى عصبة من عصاباتهم .. أو بمرض مديد فى زمان لم
يكن يعرف شيئاً اسمه طب وقائى أو يسمع عن لقاح للكلوليرا
أو التيفود .. وكانت الرحلة تطول إلى ستة شهور وسبعة شهور
وسنة ، وكان الخارج إليها مفقوداً والعائد مولوداً .

وكان يختم قصته مبتسماً بضمه الخالى من الأسنان .
وبرغم كل هذه الأحوال فقد حجبت سبع حجبات وهأنذا
أموت بينكم فى الفراش كما يموت الكسالى من العجائز . لتعلموا
يا أولادى أن كل شىء بأمر الله .. وأنه لا البحر يغرق
ولا المرض يهلك ولا نار الصحارى تحرق ، وإنما هو الله وحده
الذى يصرف الآجال كيف يشاء .

أذكر لأن قصة هذا الجد الطيب وتطوف بذهنى تلك الصور
وأنا أضع قدمى فى الطائرة لأصل جدة فى ساعتين ، وفى ساعة
ثالثة أكون فى الحرم أطوف بالكعبة ثم فى الساعة التالية أكون
صاعداً إلى عرفات ، وبعد غروب الشمس أكون نازلاً إلى مى
لرمى الجمرات ثم طواف الإفاضة ثم تنتهى كل المناسك فى
أمان .

وأذكر السرب الطويل من خمسين ألف عربية تحمل نصف
مليون حاج وتصعد كلها فى وقت واحد فى عدة طرق دائرية
حديثه الرصف .. وكل شىء يتم فى سرعة ونظام ودون حادث
وقد تناثرت وحدات الكشفة لتنظيم المرور .. وعلى الجبل
تراصت مستشفيات كاملة التجهيز لعلاج وعزل أى حاله
اشتباه .. وطوال ساعات الليل والنهار تطوف الرشاشات لقتل
الذباب والبعوض فى أماكن توالده . وتطوف فرق أخرى لجمع
القمامة وحرقها .

وبين مكة والمدينة يند أوتو ستراد أملس كالحريز تنزلق عليه
العربات فى نعومة ، وينام الراكب فى حضن كرسيه فى استرخاء
لذيذ .

ما أبعد اليوم من الأمس .
وما أكثر ما نتقلب فيه من النعم .
وكلما أحاطتنا النعمة ازدادنا لله هجراناً .

أين إيمان اليوم .. من إيمان النبي العظيم منذ ألف وأربعمائة
سنة وهو خارج في غزوة تبوك على رأس اثني عشر ألفاً من
المسلمين في شهور القيظ ، المحرق ، ليخوض في رياح السموم
والحرور القاتلة سبع ليال يتهدده العطش في كل خطوة .. وقد
ترك من خلفه الأمان والظل الظليل والراحة في خيام زوجاته .
يلقى الله وليبلغ الرسالة .. وليحارب من ١٤ .. الروم .. الذين
احتشدوا على الحدود بمئات الألوف .

واليوم ترتفع حرارة الجو بضع درجات فندير جهاز التكييف
ونغلق أبواب غرفنا لا نبرحها لأن الخروج إلى الشارع محازة
غير مأمونة .

وما أبعد اليوم من الأمس حقاً .

وما أفدح ما خسرننا حينما خسرننا الإيمان .

كلمة التوحيد .. ماذا تعني

أكثر الذين عبدوا الله وزعموا أنهم يعبدونه واحدا جعلوا له
شركاء .. أكثرهم فعلوا هذا من حيث يدرون أو من حيث
لا يدرون . أخناتون الذي بلغ القمة في التوحيد ، عاد فجعل
من نفسه ابناً لهذا الإله فقال في نشيده مخاطباً ربه . إنك في
قلبي . وليس هناك من يعرفك . غير ابنك الذي ولد من
صليبك . ملك مصر العليا والسفلى . الذي يحيا في الحق . سيد
الأرضين أخناتون .

لقد وقع برغم بصيرته الشفقة في هذا الإلحاح القديم وطن
نفسه ابناً لله من صلبه ، وفي فارس تصوروه الذين عبدوه إلهين
اثنين .. (هرمز واهرمز) : « أحدهم إله للخير والآخر
للشر » وفي الهند تصوروه ثالوثاً « براهما وفشنو وشيفا » ومن
تحت الثالوث عددوا كثرة من صفات الأرباب وصلت إلى ثلاثمائة

وثلاثين مبيد من الآلهة ، بعدد ما ظنوا من حيوانات ودواب
ومخلوقات غلج فيها أرواح تلك الآلهة .

وفي اليونان عبدوا زيوس كبير الأرباب ثم جعلوا لهذا الكبير
أغصابة من صغار الآلهة بعدد ما تصوروا من قوى الطبيعة
وعبد اليهود الرب « يهوا » إلهاً واحداً ثم جعل بعضهم من
النبي عزرا ابناً له مخالفين بذلك ما علمهم موسى من وحدانية
الخالق .

وجاء عيسى بالتوحيد فاختلف من بعده الأتباع وجعلوا من
المسيح ابناً لله وجعلوا الحقيقة الإلهية الواحده ثالثاً .
ثم جاء الإسلام بختام الكلمة في التوحيد فآله أحد صمد
لا صاحبة له ولا ولد ، ليس له ند ولا ضد ولا مثيل ولا شبيه ،
لا يتحيز في مكان ، ولا يتزمن بزمان ، ولا يتحدد في كم ،
ولا يتمثل في مقدار ، ولا يتقيد بإطار ، ولا تحيط به صورة ،
ولا يتجسد في جسد ، وهو ليس من هذا العالم ، بل هو فوقه
ومتعال عليه فهو في الإطلاق وهذا العالم في القيد ، وفي كلمة
بسيطة بليغة . أحد .. أحد .. ليس كمثله شيء .

واعتقد المسلمون بهذا التوحيد بواقع الشهادة التي يقررونها
خمس مرات كل يوم وفي كل أذان ، إنه لا إله إلا الله .. وأن الله
أكبر من كل شيء مطلقاً .. ولكن الكثرة الغالبة منهم عادت
موقعت في ألوان جديدة من الشرك الخفى ، وبات أكثر توحيد

لمسلمين باللسان بأن الله أكبر .. على حين أن سلوك هذه الكثرة
ومشاعرها يقول إن الدنيا أكبر ، وتحصيل المال أكبر وحيارة
القصور والضيايح أكبر ، والفوز بمرض امرأة أكبر والتقرب
للسلطة أكبر ، وهوى النفس أكبر .

الكثرة تقول لا نعبد إلا الله ولا نغف إلا الله ، ولكن
سلوكها يقول إنها تخاف الموت وتنتز المرض والميكروب
والفيروس والشيخوخة أكثر ، وكأنما هذه الأشياء لها سلطة
الضرر بذواتها .

الكثرة تطلب الشفاء من يد الطبيب وتشمسه في الدواء ويقع
الواحد في اليأس لأنه لم يجد الحقن المستوردة كذا أو المضاد
الحيوى كذا ، وينسى أن الله من وراء الأسباب ، وأنه هو الذى
أودع صفات الشفاء في هذا المضاد أو هذه الحقنة وأنه هو الذى
قدر البرء على يد هذا الجرح .. وأنه هو الذى خلق الفيروس
والميكروب والبكتيريا ، وأنه هو الذى نشرها وأرسلها وأنه هو
الذى أقام حواجز المناعة في أجسامنا . وأنه إن شاء هدم هذه
المناعة ، وإن شاء أعانها وأنه خالق حر والبرد والصقيع ، وأنه
هو الذى وضع خاصية التغذية في بقاءه وخاصية الإرواء في
الماء ، وخاصية القتل في السم ، وحصه الفع في لترياق .
لا شيء له سلطة النفع بذاته . ولا شيء له سلطة الضرر
بذاته .

فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسيسره اليسرى .
وأما من - يضل - واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره
(١٠ - ٥ - الليل)

لليسرى ﴿١٠﴾ .
من طلب الموتة على جريئة أعانته عليها وعليه ورز اختياره .
ومن طلب الموتة على خيرة أعانته عليه وله ثواب اختياره . وإنما
دور كل منا هو توجيه طاقته .

ولكن الله سبحانه وعالي هو صاحب الطاقة الكلية ولا يمكن
بقاد فعل بدوره فهو انوكيل الناس على إنفاذ جميع الأعمال ، وهو
اليد 'لماعله' وإنما دور القتال أنه 'أصمر القتل' وختاره وفكر فيه
وعزم عليه وهذا هو إسهامه 'لذى سيحاسب عليه .. أما إنفاذ
جميع الأعمال فإله منفرد به .. ولهذا قال الحارثي بدر :

(١٧ - الأنفال)
﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ .

وهذا هو 'لعمى الحقيقى للوحيد' أن الله هو 'الماعل الوحيد' .
وأنه إذا كانت لنا أعمال فهي سرائرنا ونياتنا وما نعزم عليه
وما نوجه إليه طاقاتنا وما نبادر إليه ، لهذا قال الله عن نفسه إنه
يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

﴿ ومن يضل الله فإله من هاد ﴾ . (٢٣ - الرعد)
﴿ ومن يضل الله فإله من هاد ﴾ . (١٢٣ - النساء)

ولكنه شاء سبحانه وقهال أن يطمئنا فعال :

وإنما الله هو الضار النافع وما عدا ذلك أسباب أفاعها الله
لنعمل عينيته ، 'التوحيد الصحيح' أن نخافه هو ، لأنه لا شيء
يستطيع أن يضربا بدون مشيئته ، وأن نطمح فيه وحده لأنه
لا شيء يستطيع أن ينفصا بدون إذنه إنه وحده الذى يعمل طوال
الوقت والرحم من كثرة الأيدي التى تبدو فى الصورة .. ألم يقل
للمماتين فى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت
ولكن الله رمى ﴾ .
مع أن الظاهر أنهم هم الذين قتلوا المشركين .. وأن التى
عليه الصلاة والسلام هو الذى رمى .

هذا هو الظاهر .
ولكن الحقيقة أنها أدوار اختار الله أبطالها منذ الأزل .. اختار
للمر نفوسا علم أنها تحب الشر وعرف أنها لا تصلح إلا للشر
بحكم ما أخففته فى سرها .. ولهذا اختار إبليس للنزابة .. لأنه
علم فيه الكبر .. واختار محمدا عليه الصلاة والسلام للهداية
لأنه علم فيه من موده ورحمه . وهكذا وزع الأدوار بحكم
استحقاقات علمها أولا .. ثم أعان كل واحد على ما يصلح له ..
أعان المضل على الضلال وأعان الهادي على الهدى .

﴿ كلا قد هولا وهولا .. س سطاء ربك وما كان عطاء
ربك محطورا ﴾ .
(٢٠ - الإسراء)

﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ . . (٢٧ - إبراهيم)

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

(٣٤ - غافر)

﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ . (٧٤ - غافر)

فجعل الفعل الإلهي قائماً على استحقاق . وهذا يجعل من انديا كلها تحصيل حاصل لاستحقاقات أزلية استحقتها نفوس الخلائق بحكم مازها التي تفاضلت بها أزلاً .. وإنما أراد الله أن يخرج ما بكم في قلوبنا فخلق هذه الدنيا ليشهد كل منا على نفسه :

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ . (٦٤ - التوبة)

وهذا يعني أن هذه الدنيا هي الفصل الثاني من روايه . وإنه كان هناك فصل أول سابق عشناه ولا نذكر عنه شيئاً .. وإنما بحكم ما قدمنا في هذا الفصل السالف استحققتنا ما نعد الآن من خير وشر .. وأن ما يجد كل منا في حياته هو أشبه بكشف النقاب عما يكتم وعما يخفى في ذات نفسه .

والله يعلم حقيقتنا من القدم ، ويعلم عنا كل شيء . ولكنه أراد لنا أن نعلم عن أنفسنا بعض ما يعلم فخلق لنا الدنيا لنرى أنفسنا في سمائلنا .

وليس هذا قولاً بتناسخ ، فأنا لا أومن بالتناسخ الذي يتكلم

عنه الهنود ، ولا في تكمص الأرواح الذي يعتقد فيه الدروز .. ولا أظن أن الفصل الأول من الرواية كان على هذه الأرض ولا أنه كان تكمصاً سابقاً لحياة بشرية .. إنما هو أمر من أمور الغيب لا يعلمه إلا الله ، وهو ماض محبوب لن يهلك عنه السر إلا يوم يبعث الله من في القبور ويحصل ما في الصدور . يومئذ تتكشف الأسرار ويعرف المجرمون أنفسهم على

حقيقتها فيقولون معترفين :

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل

(١١ - عافر)

إلى خروج من سبيل ﴾ .

ولا خروج .. فهل يستطيع أن يخرج إنسان من نفسه أو يتبرأ

إنسان من يديه « هيهات »

ويسأل سائل .. لمن الملك اليوم ؟

وتجيب السماوات والأرض وتجيب الملائكة وكل الخلق .. لله الواحد القهار ، وهو أمر ليس بجديد .. فالملك كان لله دائماً في ذلك اليوم وفي كل يوم .. ولكن الظاهر في الدنيا كان يخدع من يراه .. كان يبدو أن لبعض الناس ملكاً . وكان يبدو أن الطبيب يشفي وأن السلطان يرزق ، وأن السم يمت وأن الرصاصة تقتل ، وأن هذا ينفع وأن ذاك يضر ، وأن هناك جبارين غير الله يحكمون .

ونسينا ما وصف الله به نفسه في القرآن الكريم بأنه :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

(٣ - الحديد)

فإن كان الطبيب يشفى ، والسلطان يرزق ، والسم يميت ،
والرصاصة تقتل ، فإن الله هو الظاهر في كل هذه المظاهر وهو
الفعل الخالص فيها .. وما يجري على جميع الأيدي هو الوجه
المنظور للمشئة في تلك اللحظة .. سبحانه .. كل يوم هو في
شأن .. وتلك شئونه ..

وإذا كنا رأينا جبارين من غير الله يحكمون فما حكموا في
الحقيقة إلا به .. وإنما تجلى حكم الجبار على نفوسهم لأن
ملك النفوس لم تكن لتقبل بحكم استعدادها الأزلي إلا هذا
اللون من التجلى .. لم تكن تصلح لأن يتجلى عليها الرحيم
ولا الودود ولا الرؤوف .. ولم تكن لتقبل التجليات الجمالية
للأسماء الحليم والكريم والحنان والمنان واللطيف ..

فتحن مازلنا مع الله لم يظهر فينا غيره .. هو الظاهر بأسمائه
وأفعاله في كل شيء .. ولكن من وراء ستار الأسباب ومن خلف
قباب الكثرة .

وبرغم هذه الكثرة فإنه لا إله إلا الله .. لا فعال سواه ،
ولا شاف ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا محيي ولا يميت
ولا جبار ولا مهيمن غيره .. إنها ذاته الواحدة الفاعلة أبدًا
دائمًا .

ألا تبدو الطاقة الكهربائية في كل مصباح بشكل مختلف
حسب نوع الفتيل المعدني داخله .

ألا تبدو الكهرباء في مصابيح النيون بألوان وتألقات متفاوتة
حسب نوع الغازات في تلك الأنابيب المفرغة .
ما أشبهها جميعًا بنفوسنا التي تختلف استعداداتها فتختلف
أفعالها مع أن الفاعل فيها واحد ..
بجرد مثال .

والدنيا كلها مثال رامز للقدره فدره الواحد الأحد الذى ليس
كمثله شيء وإذا رأيت هذا الواحد من وراء الكثرة وإذا أنت لم
تعباً بهذه الكثرة وشعرت بنفسك تتعامل طول الوقت وجهاً لوجه
مع الله فلم تر شافياً لك غيره برغم تعاطيك الدواء واستسلامك
لمبضع الجراح ، وإذا رأيت هو الذى يطعمك ويسقيك وشعرت
بنفسك تأكل من يده وتشرب من يده برغم كثرة المشارب
والمطاعم التى تتردد عليها ، وإذا نسبت نفسك ولم تر غيره فأنت
المسلم الموحد على وجه التحقيق .

وإنما يأتى فساد الأعمال من تصور الواحد منا أنه يأتينا
وحده .. كما تصور قارون أنه صاحب العلم وصاحب العمل
وصاحب الفضل وقال مختالاً وهو يتحدث عن ماله وجهه :
﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ . (٧٨ - القصص)
فلم ير غير نفسه ولم يشهد غير علمه الذاتى ونسى أنه

لا يملك علماً ذاتياً ولا قدرة ذاتية ، وإغما قدرته وعلمه وذكاؤه .
كانت كلها هبات سيده وهذا هو الشرك الخفى .. حينما يصبح إله
الواحد نفسه وهواه وملكاته .

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ . (٢٣ - الجاثية)
ولهذا يتبرأ العارفون عن أعمالهم الصالحة ويسندونها إلى الله
وتوحيده .

وأكثر من هذا يتبرأ الواحد من إرادته الخيرة ومن نياته الطيبة
ويرى أنها من أفعال سيده .. ثم يتبرأ من نفسه التي بين
جنبه .. وينسى ذاته .. ويشهد أنه لا يملك من نفسه إلا العدم
وأن كل ماله من الله .. ولا يعود يختار .. وإغما يشهد الله يختار له
في كل لحظة .. ثم لا يعود يشهد إلا الله في كل شيء . فذلك
هو التوحيد الكامل .. وهذه هي لا إله إلا الله حينما تصبح
حياة .

ونرى دعاء ، أبى الحسن الشاذلى في هذه الحالة من الوجد :
رب خذنى إليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتوناً
نفسى ، محجوباً بحسى . ونقرأ في المواهب والمخاطبات لسفرى
ما يقوله الله لعبده العارف « ألقى الاختيار ألق المساءلة
البتة » ..

فتواب مثل هذا التوحيد الكامل الذى يلقى فيه العبد
اختياره ويأخذ باختيار الله في كل شيء .. هو المغفرة الكاملة

وعدم المحاسبة . يقول الله في حديثه القدسى إلى المذنب :
لو جئتني بملء قراب الأرض خطايا ولقيتني لا تشرك بى شيئاً
لوجدت عندى ملء قراب الأرض مغفرة .

فتلك ثمرة التوحيد ، وهذا ثواب كلمة لا إله إلا الله ، إذا
جعلها الواحد منا حياته وسلوكه ومنهجه ونبضه وتنفسه وذوب
قلبه . وهذا ما أراده القرآن الكريم بإسلام الوجه لله سبحانه
وتعالى . وهذا ما أراده رسولنا العظيم محمد عليه الصلاة
والسلام ، حينما سأله أحدهم أن يوجز له الدين لذى تلقاه عن
ربه في كلمتين .. فقال كلمته الجامعة : « قل لا إله إلا الله ثم
استقم » ..

وهذه هي الملة الخفيفة ملة أبينا إبراهيم الذى لم يعرف لنفسه
إلها ولا خالقاً ولا رازقاً ولا شافياً ولا منقذاً إلا الله . والذى
ألقى به في النار وظهر له جبريل يسأله حاجته .. فقال له السى
العارف الموحد . أما لك فلا ..

إنه في ساعة الخوف والهول والفرع لا يسأل أحداً إلا ربه ..
لأنه لا يرى أحداً يملك له شيئاً حتى ولو كان كبير الملائكة .
الروح القدس نفسه .. فلا فاعل في الكون إلا الله .. ولا يملك
أحد أن ينفع أو يضر إلا بإذنه

وتلك مرتبة عرفانية لا يصل إليها إلا نبي .
وهذا معنى التوحيد .

أليست هذه أسماءه ... ؟ !
وهل نحب حينها نحب إلا أسماءه المحسى حينها تحققت وأينما
تحققت
وهل نحب حينها نحب إلا حضرته الإلهية في كل صورة من
صورها .

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتحيه بحبه إلى
الأصل .. إلى ربه ولم ينتمت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان
يعطله .. ولم يقف عند الأشخاص .. فهو من أهل العرائم
لا تعلق له إلا بربه .. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطع
الرجاء وخداع الألوان .

لقد أحب من لا يهجر ، وعشق من لا يفتر ، ويعنى بمن
لا يغيب ، وارتبط بمن لا يموت ، وصاحب من بيده الأمر كله
وسهم في الهنك المركري الذي يخرج منه النقد جميعه . وهام
بالودود حقاً ذاتاً وصفاتاً وأفعالا .
وذلك هو مذهب العارفين في الحب .

فهم عرفت ...
وإذا كنت عرفت .. فهل أنت بمستطيع .
وليس كل عارف بمستطيع .

ومذهب العارفين ليس مجرد معرفه . ولكنه هم وإصدار وكدح
ومغالبة .. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن

الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان ، مانراه في المحبوبة مثلاً
مراه في قوس قزح ، جمال ألوان قوس قرح ليس من قوس قزح
نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رداد المطر المعلق في
الهواء ... فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب
الجمال .

وهكذا محبوبتك جمالها فيما يتجلى عليها من خالقها .. فإذا
انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحاً
لا جاذبية فيه .. إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكاً لها
بالأصالة ، بل كان قرصاً وسلفه .

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هي
بعض ما يتجلى فيها من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود
الرهوف الغفور الرحيم ..

تتعلق إلا بما تشهد بصرًا وسمعًا وحواسًا .

أما تعلق الفؤاد بالذي ليس كمثله شيء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة .. وقبل ذلك كله .. بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله ..

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعًا وسجودًا وابتهالاً وعبادة وطلاء وخضوعًا وخشوعًا وتذللاً وتجردًا وإن هذه مرتبة لا تدل بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه ، أو تحصيل عقلى .. ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل إليها إلا بالإخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلق النعلين .

تخلق جسدك ونفسك ..

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل .. وإنما أن تخلق حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك ، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية إلى بحسى فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصى أو عائد دافى .. فهي حالة عمل وعطاء وبدل وليست حالة زهد فارغ وتبطل . وهي فى ذروتها حالة فداء وتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله .. تضحية لا تنظر إلى نيشان أو نصب تذكارى .. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده .

ويقول العارفون إن «إثارة الاستشهاد» هى أعلى موائد التكريم

ولا دخول إليها إلا ببطاقة دعوة من صاحبها . ولا دخول إليها اقتحامًا أو قهرًا وتبجحًا .. وبما هى دعوة من الكريم يتلقاها صاحب الحظ بالتلبية والمرولة ويتلقاها المحروم بالتكاسل والتخاذل .. والتخلف ..

ذلك هو الحب فى مذهب القوم ، وهو غير الحب فى مذهب منتجى أفلام السينم ومؤلفى الرومانتيكيات ، وهو أيضًا غير الحب عند الكتلة الغالية من الناس .. حيث الحب هوى ونار وشهوة وجريمة وصدور عارية ومجوهرات ولحطات تنأق بالشعر ثم ما تلبث أن تحب وتظمئ وتترك رماد من الأكاذيب .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (٢١ - يوسف)

﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ . (٦٣ - العنكبوت)

﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ . (١١٦ - الأنعام)

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ﴾ . (٣٦ - يونس)

﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ . (٢٣ - النجم)

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ .

(٤٤ - الفرقان)

هكذا يعمننا القرآن أن الكتلة لا تعرف أم العارفون فقليل ما هم ولكن الصحة لى نطوب الكره . لسبب الى تملق الحماهير ومؤلمين ليس يطمعون فى الرواح والشعر . لئلا

يتبهم الغاوون يتفتنون بالوائى أخرى من الحب . وينهون معا في
أودية الغفلة التى تنتهى بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت
وسقوط راهب تاييس ومباذل فالتينو وجرائم آل كابوني وموائد
مونت كارلو .

والمنتجون عندنا أكثر تواضعا فهم يكتفون بكباريات شارع
الهرم .

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل ، ومنذ أيام أنطونيو
وكليوباتره ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان .. ونقرأ في
كتاب الموقى هذه السطور الى كتبها الحكيم المصرى منذ خمسة
آلاف عام .

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة
الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة قصيرة كاللحم والنم يتبعها .
إنها معارف قديمة منذ أيام آدم .. وقصة بائنة منذ مقتل
هابيل .

ولكن لا أحد يذكر ... ولا أحد يعتبر .. ولا أحد يتعلم من
الدرس .

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم
وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات .

إن السلام إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت ، ولكن

لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت في
البدروم ...

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود .. وتحمل مشقة الصعود
وشاهد المنظر من فوق ، لبكى ندما على عمر عاشه في البدروم
بين لذات لا تساوى شيئا ولكنه الضعف الذى ينخر فى الأبدان .
والبشرية سير من لضعيف إلى الأضعف ، والأجيال الجديدة
أكثر ضعفا وأكثر تهافتا على العاجل البائد من اللذات ، واهرا
المقال من أوله واسأل نفسك .. من أى مرتبة من البشر أنت ..
هل أنت عارف .. وإذا كنت عارفا .. فهل أنت بمستطيع .
وابك ماشئت من البكاء فلا شيء يستحق أن تبكيه ..
لا فقرك ولا فشلك ولا تخلفك ولا مرضك .. فكل هذا يمكن
تداركه أما الخطيئة التى نستحق أن تبكيها فهى خطيئة البعد عن
إلهك ..

فإن ضيعت إلهك .. فلا شيء سوف يعوضك .
وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئا .

ووقعت المرأة في الفخ .. وحلعت ثوب حياتها وعرضت
جسمها سلعة تنبشها العميون .
وقالوا لها البيت سجين ، وإراضاع الأطفال تخلف ، وطهى
للعاء بدائية .. مكانك إلى جوار زوجك في المصنع وفي "أوتوبس

وفي الشارع .
وخرجت المرأة من البيت لباشر ما تصلح له وب لا تصلح
له من أعمال .. وألفت بأطفالها إلى الشغالة .. وقالو لها جسمك
ملكك أنت حرة فيه بلا حسيب وبلا رقيب وليس لك إلا حياة
واحدة وكل يوم يخفى من أيامك لمن يعود .. عيشي حياتك
بالطول وبالعرض .. أنفسي شبائك قبل أن ينفد ، واستثمري
أنوثتك قبل أن تشيخ ولا تعود لها سوق .. وساهم الفن بدوره
ليروج هذا المهور .. ساهمت السينما والمسرح والإذاعة والأغنية
والرقصة والقصيدة .. ودخلت الغواية إلى البيوت من كل باب
ونسربت إلى العقول ، وتخللت الجلد وأشملت الخيال بسمار
الشهوات ، وأمضت القلوب بداء الخيانة .. وأصبحت المثل
العليا في المجتمع هي أمثال مارلين مونرو وكلوديا كريدنالي ولولو

بريكيذا .
وأصبحت البطالات صاحبات المجد عندما أمثال شفيقة

القطبية وجمية كشر وسيرة المهديّة .
وأصبحت القدوة هي زوجة هربت من بيت الزوجية

المرأة ..

نظرة على الشارع وعلى فائزينة الأزياء ومجلات الموضة
وصالونات الكوافير وإعلانات الروج والمانيكير وأنواع
الباروكات ، سوف تشعرونا بمدى الجناية التي جنتها الحضارة
المادية المعصرية على عملية المرأة . ومن الرحلة الأولى سوف نفهم
أن هذه الحضارة لم تترك في المرأة إلا دمية أو لعبة أو متعة ،
إثارة الرغبة والشهوة واشتغال الخيال .. حتى أساء المصور .
عطر « سكاندال » يعني فضيحة .

هكذا زادوا بالمرأة حينما صمموها لها 'الفساتين' ورسومها لها
الفتحات على الصدر والظهر ، وحينما حرقوا لها البنطلونات
وضيقوا البلوزات .. واستخرجوا المرأة من غرونها حينما قالوا
لها .. ما أحمل صدوك .. ما أحمل كفتيك .. ما أروع ساقيك .
ما أكثر جاذبيتك حينما يكون كل هذا عارياً .

وطب المرأة بنفسها الشطارة والفهلوة فظنت أنها تقدمت على
أما وجدتها حينما اختارت لنفسها هذه المسالك .. والحقيقة أنها
استدرجت من حيث لا تدري ، وكانت ضحية الإيحاء
والاستهواء وبريق الألفاظ ، وخداع الفن وأجهزة الإعلام ،
والرأى العام الموجه الذى تصنعه حضارة مادية وثنية لا تؤمن
إلا باللمحظة ، ولا تعترف إلا بلذائذ الحس .. الصنم المعبود لكل
إنسان فيها هو نفسه وهواه .. والمحراب هو فاريتة البصائع
الاستهلاكية ، والهدف الذى من أجله يلهث هو إشباع الحاجات
العاجلة ..

ترى كيف كانت نظرة الإسلام للمرأة .. الإسلام التهم
الرجعية وانتخلف والبدواة .. الإسلام الذى قالوا عنه إنه أفيون
الحوب ..

لم ينظر الإسلام للمرأة على أنها دمية أو لعبة أو متاع ، بل
إلها على أنها أم ورأى فيها شريكة عمر لا شريكة ليلة ..
عنها القرآن الكريم إنها السكن والمودة والرحمة وقرة
.. واختار لها البيت والحجاب والرجل الواحد تعظيماً
.. وحفاظاً عليها ..

.. ماتت خديجة لمحمد عليه الصلاة والسلام أكثر من مجرد
.. لقمة أو شريكة فراش ، فقد شاركته الدعوة والرسالة ،

واحتضنت هموم النبوة . وكانت الناصع والصديق والأم الرءوم
والسند المعين ..

واشتغلت المرأة بالتمريض ، وصاحب النساء أرواجهن في
الغزوات .. وجلست المرأة للفقهاء .. وجلست لتلقى العلم ..
وأتشدت الخنساء الشعر بين يدي النبی عليه الصلاة والسلام ..
وكان يستزيدها قائلاً هيه ياخناس ..

ولم يبيع الإسلام التعدد إلا للضرورة وبشرط العدل ..
وما أباح التعدد إلا إيثاراً لأن تكون المرأة زوجة ثانية بدلا من
أن تكون عشيقة وهذا أكرم ..

ثم جعل القاعدة العامة في الزواج هي الزوجة الواحدة لأن
العدل بين النساء أمر لا يستطيعه الرجال ..

وقد عهد الإسلام إلى الرجل بأن يبنى ويعمر ويفتح الأمصار
ويتاجر ، ولكنه عهد إلى المرأة بما هو أشرف من كل هذا
بحضارة الإنسان وتربيته .

إن الرجل له أن يصنع أى شئ ولكن المرأة وحدها هي التي
سوف تصنع الرجال .. وهذا غاية التكريم وغاية الثقة هل هذا
هو التخفيف .. أم أن التخلف الحقيقى هو أن تسير المرأة نصف
عارية حلمها إثارة رجل وغايتها متاع ليلة ، ومثلها الأعلى امرأة
هلوك يقتتل حولها السكارى مثل الراحلة بمبة كشر .. كم
خدعوك يا أخت ..

وكم استدرجوك إلى حتفك .. وخلعوك من عرشك وانترعوك
من خدرك .. وياعوك في أسواق النخاسة رقيقاً تتمر بقدر
ما فيها من لحم
وأنت نصف الأمة .

ثم إنك تلدين لنا النصف الآخر .. فأنت أمة بأسرها ..
ولا يستطيع الرجل أن يفقد التطور وحده .
ترى هل آن الأوان لتعيدى النظر .. ترى هل آن الأوان
لتعرفى قدرك وتعرفى دورك .

احترام الجسد

مأساة الإنسان أنه لا يوجد تواز بين نفسه وجسده ، فالحادثة
التي تقطع ساقه لا تقطع رغبته في المحرر ، والجراحة التي
تستأصل غدته التناسلية لا تستأصل رغبته الجنسية .. وحينما
يضعف بصره بالشيخوخة لا تضعف رغبته في الرؤية ، وعندما
يضعف سمعه لا يزهد في الطرب وحينما يضعف بدنه لا تموت
شهوته .. وإنما العكس .. تسقط الأسنان وتزداد الرغبة في
المضغ .. وتبدأ المهزلة .

ومن لم يؤدب شبابه لن يستطيع أن يؤدب شيخوخته . ومن لم
يتمرس على كبح نفسه صبياً لن يقدر على ذلك كهلاً .. وسوف
تتحول لذته فتصبح عين مهاته إذا طال به الأجل . ولهذا نرى
الله يطيل آجال بعض المسرفين ليكونوا مهزلة عصورهم ،
وليصبحوا حكاية ونكتة تنتدر بها الأجيال للاعتبار .. حينما

يتحول الفجار والفساق العتاة فيصبح الواحد منهم طفلاً يقبل على نفسه وكسيحاً يحب ومعوفاً يفاق ويتهمه ، وتسقط أساءه التي سبق أن نبتت بالألم فينخرها السوس لتقع مرة أخرى بالألم ، وتعود أطرافه التي درجت على مشاية فتدرج على عكارين ويتحول الوجيه الذي كان مقصوداً من الكل إلى عالة رشيئاً ثقيلاً وكومة من القمامة يتهرب منها الكل .. ثم لا يعود يزوره أحد .. ثم يموت فلا يشيعه مخلوق .. ولا تبكيه عين .. ولا تفتقده أذن .. ولا يذكره إنسان .. وكأنه دابة نفقت في حفرة .. فذلك هو التكريس .. الذي ذكره القرآن .
﴿ ومن نعلمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ .

(٦٨ يس)

والسر في هذه المأساة .. أن النفس لا تشيخ ولا تهرم . ولا تجري عليها طوارئ الزمان التي تجري على الجسد .. فهي من جوهر آخر غير مادة الجسد الكثيفة المركبة التي يطرأ عليها التحلل والفساد .

فالسائق ما يزال محتفظاً بجميع لياقاته وسيظل شاباً على الدوام وإن كانت العربدة الشيفروليه الفاخرة قد صدئت آلاتها وأصعبها التلف وعجرت عن الحركة .. ولم تعد للسائق حيلة سوى سحبها . وتلك هي حادثة الشيخوخة .. نفس مازالت كدس ، غيبتها وسهوها . ولكن لا حيلة لها مع جسد مشلول لم

يعد يطاوعها .. لا حيلة لها سوى أن تسحبه وتجره على كرسى متحرك .

يقول أهل الله في شطحاتهم الصوفية الجميلة : إزالة التعلقات بعد فناء الآلات من المحالات .

فهم قد فهموا شيئاً أكثر من مجرد أن الأحسام آلات لتنفيذ رغبات النفس ، بل هي أشبه بالسلام يمكن أن يستخدمها صاحبها في الصعود أو في الهبوط .. فالمعدة عضو أكل ولكنها أيضاً عضو صيام إذا تسليقت عليها .. وبالمثل الجهاز التناسلي عضو جماع ، ولكنه أيضاً عضو عفة إذا حكمته .. بل إنه لا معنى للعفة بدون وجود نزوع شهواني للأعضاء تقابله بضبط إرادى من ناحية عمك .

وتلك هي الفرصة التي أسموها .. إزالة التعلقات . وسوف تضع هذه الفرصة بالشيخوخة وانتهاء الأجل .. فلا أمل في إزالة التعلقات بعد فناء الآلات فذلك من المحالات . وبذلك فهموا علاقة النفس بالجسد فهماً جديلاً .. فالنفس تؤدب الجسد ، ولكن الجسد أيضاً يؤدب النفس .. وعملية الردع عملية متبادلة بين الاثنين .

الفرامل المادية مطلوبة لتربية الفرامل السلوكية والعكس صحيح .. والأجل المحدود .. يمكن أن يكون عملية إنفاق وتبديد . أو عملية بناء وتشيد .. وبناء الشخصية النفسية

وتعديلها والارتقاء بها أو الانحطاط بها محتاج إلى الأسمنت
الجسدى والحرسانة المسلحة من الخلايا .. الروح محتاجة إلى
الطين .. والطين محتاج للروح .
والنمو النفسى والروحى والتقدم المعنوى والتطهر الخلقى
محتاج لهيكل مادى يعرج عليه صعداً .

وبهذا المعنى ينظر الصوفيون إلى الجسد بتقديس واحترام -
ولا يحتقرونه - فهو عندهم محراب النفس .

فالنور فى النهاية يخرج من سلك متوهج .

ونور الشمس يخرج من اندماج ذرات الهيدروجين .

ونور الغاز يخرج من احتراق الزيت .

ونور فضائلنا يخرج من احتراق أجسادنا .

فالجسم قنديل يمكن أن يشع فضيلة .

والنظر إلى الجسد باعتباره نجس وخطيئة نظرة غير إسلامية

بل هو أمر مناف للإسلام .. فالإسلام شمولى وجدلى ينظر إلى

الإنسان باعتباره جسد ونفس وروح معاً . بل إن الإنسان هو

تفاعل الثلاثة معاً فى وقت واحد .. وجسد الإنسان يمكن أن

يكون هو عين روحه فى لحظة .. كما أن روحه يمكن أن تكون عين

جسده فى لحظة أخرى والمسألة تتوقف على النفس هل هى

صاعدة على سلم الهيكل أو هابطة عليه .

والجسد عند الصوفية هو مجرد رسم مطلق للروح ورمز راز

لأسرارها .. وهو معراجها الذى تصعد عليه للحصرة الإلهية .

وفى حوار شعرى رقيق بين الروح والجسد ، يقول الصوفى

أبو العزيم على لسان الروح مخاطباً الجسد :

أيا رسم من سفلى تصاغ وترتقى

فبين بحال أو صريح كلام

فيجيبه جسده قائلاً :

لولاي ما جاهدت فى الله مخلصاً

ولولاي ما شرفت بالإكرام

فلولا ظلام الليل لم يعرف الضياء

وهو كلام دقيق وعميق ، فلولا المرض لم تعرف الصحة ولولا

السواد لم يعرف البياض . وكل شيء لا يجوه إلا نقيضه

وبأضدادها تعرف الأشياء .

والجسم والروح كاللوح والقلم والمرآة والوجه وكالشمس

ونورها .

وفى أسرار الروح لا ينتهى الكلام .

بتقاضى عمولة قد تصل إلى عشرات الملايين كما فعل البابا في
 نايكا في صفقة طائرات لوكهيد لا يدخل تحت طائلة الحد .
 ومعنى ذلك أن أحظر مفهوم لسرقة في عالمنا العصري سوف
 يخرج من نطاق الحد ومن نص الشريعة ، وسوف يجد اللصوص
 الكبار ثغرة واسعة يهربون منها بسرقاتهم ولن يقع إلا اللصوص
 الصغار ونشالو الأنوبيس .

وقد أحسن لرميل أحمد بهجت حين وصف لشريعة بأنها
 رحمة ووقاية وصيانة ودفاع عن الضعفاء من بطش الأقوياء ، وأن
 الحدود ليست إلا السباح من الأسلاك لشائكة اضروب حول
 هذه الخيمة من الرحمة ، وأن الإسلام لم يأت ليزيد في عدد
 أصحاب العاهات وأنه لا بد من التدرج ، ولابد من الانتقال
 بالمجتمع ولا إلى حالة من الكفاية والعدل ، ولابد من تيسير
 الزواج وتسهيل نعمة وإيقاف هذا السيل العارم من الغواية
 والإثارة لشهوانية التي تقوم بها الأفلام السينمائية قديمها
 وحديثها وهذا يعزى في لصورة والأعْيى ولكلمة قبل أن نطلب
 شبابنا بالنعمة ونخلصه . لابد من صلاح لدخ الاجتماعي
 والإعلامي والفني وقطع دابر الاستغلال الاقتصادي بأنواعه قبل
 أن نأخذ الناس بالشدة وبالعقاب الغليظ .
 إن عمر بن الخطاب لم يقطع يداً في عام المجاعة ، والنبي عليه
 الصلاة والسلام لم يقطع يداً في الحرب وكلاهما كان يطبق

الشريعة متى .. وكيف

الشريعة أصبحت مطلباً شعبياً وأصبحت موضوعاً للمزايدة
 بين الأحزاب وأصبحت ورقة انتخابية ، وكل هذا طيب وجميل ..
 إن الكل يريد أن يعود إلى الله ، والكل يتسابق إلى المنهج
 الإلهي .. هذا حسن .. ولكن البعض يشعر بالإشفاق .. وهناك
 أعلام كثيرة تطالب بالوصوح .. وعندها حق .. فقد اختلف
 العصر واختلفت أنواع السرقات ويخشى البعض أن تقطع اليد
 التي تسرق عشرة جنيهات ، وتعفى اليد التي تختلس الملايون جنيهه
 لأن اجتهاد الفقهاء أعفى الاختلاس من الحد باعتباره لا يدخل
 تحت النص الحرفي لكلمة سرقة كما أن السرقة من مال عام
 أعفيت هي الأخرى من الحد لوجود شبهة الظلم في المال
 الحكومي العام مما يجعل لمن يسرقه شبهة الظلم في المال
 لا يدخل التزيف والتزوير والرشوة .. كما أن الموظف الذي

الشريعة ، لأن كليهما فهم الشريعة بمعناها الحقيقي إنها رحمة ..
لقد اجتهد الاثنان في فهم الشريعة وفي فهم ظروف تطبيقها ..
ومطلوب من فقهاءنا أن يجتهدوا وأن يحاولوا أن يتفهموا الظروف
الجديدة والأشكال الجديدة الخطيرة للسرقة في عصرنا .

إننا نعيش بالفعل في عصر تاناكا .. وأخطر أنواع السرقة
هي الرشوة والعمولة والاختلاس ونهب المال العام ، فإذا أخرجنا
هذه الجرائم من عقوبة الحد اتباعاً منا للسلف وتقليداً للمفهوم
السلفي في تفسير كلمة سرقة ، فإنه يكون تقليداً عن عمائه
واتباعاً عن جهل ، وذلك لاختلاف نوعيات الجرائم باختلاف
الظروف في العصرين .

ولو أننا أطلقنا تلك الأفلام الجنسية المسعورة على شبابنا
وكلها أفلام تأمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وتحض على الزنا
جهاًراً نهائياً ، ثم أشهرنا حد الرحم فوق الرقاب لظلمنا
وما عدلنا . ولا يمكن أن نحول مجتمعاً داعراً إلى مجتمع فاضل في
يوم وليلة بمرسوم ورارى ولا يمكن أن نحول الهبوط الفني إلى
سمو فني في لحظة بقانون ولا أن نقلب البرامج الخفيفة إلى برامج
دسمة جادة في طرفة عين .. وإنما لابد من التدرج .

وفي الفقه شيء يسمونه شيوع البلوى .. إن البلوى إذا
شاعت وعمت فإنها تكون مدعاة للاستثناء ومدعاة إلى الإصلاح
المتدرج .

وقديما كان شرب الخمر بلوى عامة وشائعة في المجتمع
القرشي ، ولهذا نرى أن الآيات التي نزلت بانتحريم نزلت
متدرجة .. في البداية نزلت آيات تقول إن للخمر ^{بمعنى} حرمة وإن لها
مضار وأن ضررها أكبر من نفعها .. ثم نزلت الآيات التي تحرم
شرب الخمر وقت الصلاة ثم أخيراً نزلت الآيات التي تحرم شرب
الخمر إطلاقاً .

وقد كان سبب هذا التدرج في التحريم هو شيوع البلوى
وكذلك كان إلغاء الرق في الإسلام بالتصفية التبرجية بالعنق
وأخذ الفدية من الأسير أو إطلاقه دون استرقاق ولسبب أن
الرق كان هو الآخر بلاء شائعاً وكان تحريمه بضربة واحدة باثرة
معناها خروج ألوف المتعطلين والمتسولين بلا عمل سوى السرقة
أو الدعارة .. ولأن إلغاء الرق كان أمراً مسحبلاً من طرف
واحد فقد كن المسلمون والمشركون طرفين في حرب سجل
ولو أن المسلمين امتنعوا عن استرقاق الأسرى من طرفهم دون
معاملة مساوية في لطرف الآخر لكان هذا الشرع طبعاً للمسلمين
الذين يقعون أسرى وأرقاء على الطرف الآخر .. إن شيوع
البلوى كان دافعاً هاماً في التشريع ودافعاً إلى التدرج في
الإصلاح ..

إن الحقيقة التي يجب أن يفتن لها الجميع أن الشباب لم
ينحرف وحده ولكن البيئة انحرفت والمناخ الاجتماعي انحرف

رأى المفوف لا يلد إلا السلبية واللامبالاة .. وأن القوة لا تلد
لا مراكز قوة تأتي معها الإذلال والإرهاب والتكبل ، وليس
حرية والكرامة والقوة . ولقد رأينا بأعيننا ماذا يفعل المحاسنون
في مراكز القوة . ولن تأتي الشريعة بهذه الوسائل أبداً ، لأن
الشريعة رحمة ومحبة ، ولا وسائل لتحقيقها إلا الرحمة والمحبة .
الشريعة هي قمة الحكمه الربانية .. وهي تحتاج إلى ذروة حكمه
البشرية في الفهم وفي التطبيق .. وأى كلام غير ذلك غويته
ومزائيدات حزبية وبالونات دخان للنعمة ، وأى تطبيق للشريعة
بدون فهم لن يكون سوى إجراءات مطهرية ، وعزود مره
سطحي لطرح مبعأ بالصدية .

إن التقوى هي روح الأمر كله .
وحينما تزداد حرارة الإيمان وتتمكن القلوب إلى ربها لا يعود
الواحد منا يختار إلا ما اختار له ربه ويصبح هوأه فيما شرعه .
الله دون تكلف .

وحسن التربية في البيت والمدرسة والجامعة والمصنع .
وحسن القدوة في الأب والمدرس ورئيس العمل وزوجه
لحزب .
وحسن الدعوة إلى منتج الله بالقول الحسن والبطولة

الحسن .
كل هذه وسائل أكثر فعالية في تطبيق الشريعة من الزايد

والفكر انعرف والفكر انعرف والسياسة انعرفت .. وفي داخل
البرلمان وحدنا تجار مخدرات يتعصمون بالمحصانة البرلمانية وفيهم
رعامات .. إننا بالعمل نعيش في عصر تاناكا .. وكبار اللصوص
هم الأولى يقطع الأيدي ومنتجو الأفلام الجنسية هم الأولى
بالرجم ومافيا المخدرات وبعضهم في أعلى المناصب هم الأولى
بالنشق وإذا ناديتهم بالشريعة فأننا أقول نعم وأنا أنادى معكم .
ولكن أسأل أولاً .. من يقطع يد من في هذه الغابة ..
ومن منكم لم يرتكب خطيئة ليكون الرامي بأول حجر ..
أقول الشريعة واجبة وهي حق . ولكن الطريق إليها ليس
المغاب وحده ولكن الإصلاح أولاً . لابد من إصلاح اجتماعي
حمل الفضيلة ممكنة قبل أن نقاقب تاركها .. ومن ثم لابد من
التدرج والأخذ يبدأ تطبيق الشريعة على مراحل لأن إصلاح
المنأخ الاجتماعي والفكر والفكر والسياسي والاقتصادي
لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة .

هذه نظرة واقعية أعلم أنها لن تعجب هؤلاء الذين يحملون
بإصلاح كل شيء بانتقال ويتصورون أن المداخل الرشاشه يمكن
أن يحسم كل شيء وتأتي بالشريعة على ظهور الدبابات ، وأن
المضائل يمكن أن تصح قهراً وأن الشرف يمكن أن يولد
بالرعب .

وأقول هؤلاء إن العنف لا يلد إلا التفاف والكذب والتعلق

الانتخابية ، وفي القرآن يعلمنا ربنا قائلا في آياته :
﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ﴾ .

ولن تجدوا واحداً من الخمسة والأربعين مليوناً يرفض الحسن
من كل شيء ، والشرعة هي الحسن من كل شيء ، بل هي
الأحسن من كل شيء .

عن التصوف

يحكون لنا عن الملاح الذي كان يقف في شوارع بغداد
هاتفاً .. أنا الله .. سبحاني ما أعظم شأنى .. يا خلق الله مافي
الجنة غير الله ..

وكيف تصيد له قضاته هذه الكلمات وأمثالها وحكموا عليه
بالإعدام بتهمة الكفر .

ويعتذر الصوفية عن الرجل فيقولون : إن مثل هذا الكلام
لا يصح أن يؤخذ على علاه .. فالملاح صوفي من أهل المواجد
والأحوال .

وهو لم يكن في طوره حينها كان ينطق الكلمات ، وإنما كان في
حالة من الوجد والحب والوله ، وقد بلغ به حبه لله إلى ذروة قباء
في محبوبه فما عاد يدرك لنفسه وجود وعاب غاماً عن نفسه
فأصبح الله هو الذي يتكلم على لسانه فيقول : أنا الله .

ويسمون هذه اللحظة لحظة الشهود ... آراء التجلي حيا
ينجلي الله على قلب عبده فينسحق العبد ونفى ويصبح عدما
ويصبح الحضور لله ولا سواء ، والكلمة لله ولا سواء .

وشأنه في ذلك شأن المجذوب المسلوب اللب والفؤاد
والعقل ... والصوفي كذلك يجذب إلى الحضرة الجلالية جذبا
لا حيلة له فيه فيرفع إلى حال من الرؤية وإلى جرعة من الحق
أكبر من طاقته ، فتفقد العقل والقدرة وتدرره تراباً مثل الحل
الذي اندك دكاً ، وموسى الذي خر صعقاً .

وتقتل كتب الصوفية بمثل هذه المواقف ، وبمثل هذه المواقف
والحالات وتستفيض في وصفها . ولا غلك حياها إلا التحفظ
الشديد

ورأى أن هذا الجانب من الصوفية ، هو واد كثير المهالك ..
ومزلق خطر .. وأن السير فيه يضر أكثر مما ينفع .
وأخطر ما في هذا المزلق أنه يمكن أن يجبر الصوفي إلى فكرة
وحدة الوجود .. وهي الفكرة التي تقوم عليها الفلسفة الهندية ،
والتي تقول بوحدة الخالق والمخلوق ، وأن الله حال في مخلوقاته
متحد بهم .. وأنه هو وهم واحد .. فهو القاتل والقتيل والسكين ،
وهو الذي خلقهم معاً في وقت واحد . وفي جراب واحد .. بمثل
ما يقول الحلاج . إن الله في الجبة .. وهو كلام إذا مدناه على
استقامته بالطريقة الفلسفية ينتهي بنا إلى نفى وجود الله

٩٠

لا إثباته .. فكل ما نعترف به حينئذ هو مجموع ما نرى من
وجود نعتقد أن هو في جلته هو الله .. وهي عبارة متهذبة للإيمان
بالوجود الموجود ونفى ما عداه أي نفى الله في ذات الوقت ..
ولهذا تلتقى الفلسفة البوذية والهندية مع الفكر المادي .

وأستبعد أن يكون بوذا لو أنه كان نبياً بحق أن يكون قد قال
هذا الكلام . وربما يكون حاله كحال المسيح الذي شوه اليهود
تعاليمه ، وزيفوا أقواله من بعده وادعوا أنه قال أنا الرب ..
أنا الله .

ولهذا يحرص الصوفية كلما ذكر الحلاج على توضيح أقواله
بهذه المذكرة التفسيرية التي يقولون فيها ، نه كان غائباً عن نفسه
حينما كان يتكلم .

وأهم من هذه المذكرة التفسيرية في نظري أن نحاول فهم الله
كما قدم لنا نفسه في القرآن .
والله في القرآن هو المتعالي .

هو متعال على خلقه ، كما يتعالى الصانع على صنعته ، وكما
يتعالى الفاعل على المفعول .. وهو ليس في « وحدة وجود » مع
صنعه ، وليس متحداً بها ولا حالاً فيها .. كما تصنع أنت الموتور
فلا تكون متحداً به ولا حالاً فيه .. وإنما تكون متعالياً عليه .. لو
كان للموتور لسان ، ولو أنه تكلم وقال لن أتحرك .. فإنك تقول
له بل تتحرك وتوصل أسلاكه بالكهرباء فتديره برغم أنفه ..

فأنت متعال عليه .. وأنت القاهر بالنسبة له .

وبالمثل الله في القرآن هو القاهر فوق عباده . و « فوق » هنا لا تعنى المكان ، وإنما تعنى فوقية في الرتبة .. لأن الله متعال على المكان أيضا .. وهو أيضا متعال على الزمان ، فهو لا يتميز في حيز ولا هو يترجم بفترة .. ولهذا كان الأول والآخر والظاهر والباطن .. الأول قبل الزمان وقبل الوجود لأنه خالق لزمان الوجود .. والآخر بعد انتهاء الزمان وانتهاء الوجود ، لأنه الباقي بعد الكل . وهو الظاهر . وليس معنى ذلك أنه اعلاج أو غير العلاج وإنما المقصود بكونه « الظاهر والباطن » .. إن الظاهر هو فعله .. والباطن ذاته .. وكل ما نرى ويظهر لنا ويجرى علينا هو بعض أفعاله .. فكلمة الظاهر هنا مقصود بها وجه الشمول . الظاهر اليوم وبالأمس وعبر القرون الماضية والقرون الآتية كل ذلك فعله . ثم من قبل ذلك هو كائن فهو الأول ومن بعد ذلك يكون فهو الآخر .

والاتحاد بالله لا يقول به الإسلام لأنه غير ممكن .. وإنما الإسلام يقول بالقرب والبعد والجمع والفرق .. فهناك المقربون مثل الأنبياء والشهداء والصدّيقين .. وهناك المبعدون مثل الكفار .

والصالحون مجموعون على الله .

والمجرمون مفرقون عنه .

وهذا هو الجمع والفرق .

أما الاتحاد والوحدة والحلول فهي أمور يتنزه عنها الله .. فهو العلى المتعالى عن هذه الصفات .

واقفه في القرآن هو الأحد .. والفرق بين الأحد ولواحد أن الأحد لا ينقسم ولا يتجزأ وليس له بعض أو نصف .

ولهذا فهو « السلام » لأنه لا ينقسم على نفسه ... ولأنه يجمع الأضداد في تكامل لا تناقض فيه .. فهو المعز المثل الباسط القابض الراجع الخافض النافع الضار . هو جامع هذه الأضداد دون تناقض ودون تصارع ، فيجمع في ذاته النفع والضرر والمجبروت والرحمة في وحدة سلام لا تقبل القسمة .. وهي ذروة في الكمال لا تصل إليها إفهامنا .

وقد نفهم نحن هذه الوحدة الداخلية بعض لشيء حينما نتوحد نحن أيضاً في داخلنا .. فتكون نية الواحدة منا مثل قولنا مثل فعله ، فيكون واحداً قلباً وعقلاً وعاطفة وعملاً . وهو ما نصير إليه بالتوحيد وعبادة الواحد والتزام لطريق

والله في القرآن هو الحي وما سواه هلاك أو صائر إلى هلاك .. وإذا كنا نحيا اليوم فإننا نحيا به مددته فهو الحي لدى به الحياة فإذا انقطع مدده لم يبق لنا من وجوده إلا لعدم . وهذا معنى كلمة « فيوم » أي أنه بقيمنا .. وأب به فيوم ، كي

أ لأفلاك واسجوم يسوكة عصته حاربه بقوابيه فهو فيومها .. وهو فيوم كل سر . فيوم هذه الحية . وهو الحية

الأخرى حينما يقيمنا من الموت فلا يمكن أن يقوم أى شيء
أو يوجد إلا بفضلها .

وهو البصير بلا بصر ، والسميع بلا سمع ، والمتكلم بلا كلام
وبلا حروف .. فاقه لا يبصر بعين كما نبصر نحن ، ولا يسمع
بأذن ولا يتكلم بلسان .. وإنما الله يبصر بذاته ويسمع بذاته
وينكلم بذاته ، بلا أدوات وبلا حروف وبلا لغة .. وكلمة الله
روح وإرادة ومشئنة ، يقول لنا الله في القرآن إن المسيح « كلمته
ألقاها إلى مريم وروح منه » فالمسيح كلمته كما أن آدم كلمته .
وهو الخالق البارئ المصور . الخالق في الملكوت حيث خلقنا
نفوساً بكلماته وعلمه . والبارئ حينما أعطى تلك النفوس رخصة
الوجود ، كما يعطى الملك براءة الوسام ، فيصبح للمواطن الحق
في أن يلبسه والرخصة في حمله . وهو رمز لإطلاق تلك النفوس
من قبضته .

والمصور حينما أنزل تلك النفوس إلى الدنيا بأمره وصور لها
قوايلها في الأرحام .. ﴿ يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ .
وهو النور .

ونور الله هو ما يقذف في الضمائر والسرائر ، وهو نور
الفطرة والبديهة ، ونور العقل الذى يكشف به الحق من
الباطل . ولا يقصد به نور الشمس أو الكهرباء أو النجوم ،
فكل تلك الأنوار ظواهر مخلوقة مصيرها إلى الانطفاء .

وهو الصمد من الصمود والثبات والاستقرار حيث كل شيء
من حوله يضطرب ويتغير ، وهو الصمد الذى لا يتغير
ولا يضطرب كالمرساة وسط البحر يوج من حولها البحر
ويضطرب ولا ملاذ للسفن من هذا الاضطراب إلا اللجوء إلى
المرساة واللواذ بها ، وهو لهذا الصمد الذى يصمد إليه ويلجأ إليه
من دوامة الخيالات والأوهام والأضاليل التى اسمها الدنيا .

والصمد بمعنى المصمت المتداعج .. فكل شيء مخلخل له جوف
إلا هو .. والمادة كلها مخلخلة والذرة مخلخلة وجميع مكونات الذرة
مخلخلة ، لأنها تركيبات من أجزاء ماله العطب والفساد
والانحلال .. ماعدا هو .. الجوهر الفرد .. الذى لا يتألف من
أجزاء ولا عناصر ، المصمت بلا جوف . الأحد الصمد .
وهو الرحمن من مطلق الرحمة .. فيرحم بالعقاب وبالعتاق
كما تضرب ابنك المذنب رحمة له وتأديباً
وهو الرحيم بالمعنى الخاص والخالص للرحمة مسحها خالصة
لأحبابه .

وهو اللطيف أى الخفى الشديد الخفاء فى أ
فيخيل لك أنك أنت الذى تفعل ، ويخترع
الذى نخترع ، لأنه أحال عليك الأ
وأعطاك المواد الخام وأعطاك العقل

والخشب وأهلك قوانين الطفو فاخترعت السفينة وهي في الحقيقة من خلقه .

﴿ وله الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ .

(٢٤ - الرحمن)

﴿ وسخر لكم الفلك لتجروا في البحر بأمره ﴾ .

(٣٢ - إبراهيم)

ولكنه يعمل من وراء حجاب الأسباب فيخيل إليك أنك أنت الذي تعمل .

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

وهو يفعل ذلك بلطف وخفاء واستسرار لا يدرك .

وبين كونك مخيراً وكونك مسيراً خيط دقيق كالشعرة لا يبين .

فأنت مخير في النية والضمير والسريرة .. ثم هو في الخارج يحرك عليك الأسباب والمقادير لتخرج ما تكتمه وتلبس بحقيقتك .

﴿ والله يخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

وهذا غاية اللطف والخفاء .

في هذا البحر المليء بالخفايا يخوض الصوفية ولهذا تكثر بينهم المهالك ويضل منهم الكثير ويختلط على الواحد منهم أحوال في لحظة الوجد والجذب فيقول : « أنا الله » .

ولهذا نصح بعض الأئمة من المسلمين بتجنب طرق الصوفية .. وقالوا في ذلك إن النبي الذي أمرنا جميعاً بأن نتخذ منه أسوة ، لم يعرف عنه حال الجذب ولا كان من أهل المواجيد ، ولم يذكر لنا التاريخ أنه راح مرة في غيبوبة الحب هذه ولا كذلك عيسى ولا إبراهيم وهو الخليل الذي كان يكلمه الله كما يكلم الخليل خليله .. وحسبنا خير موسى صعباً عندما طلب رؤية الله كان ذلك من الله تحذيراً وعقاباً لأن موسى طلب ما لا يجوز طلبه .

وهؤلاء هم الأنبياء أهل القدوة والأسوة والاتباع .

والمؤمن الصالح في الإسلام هو رجل عامل وليس رجلاً معتزلاً متأملاً في الخلووات .. ولو كان أبو بكر وعمر صوفيين من طراز الحلاج لما قام للإسلام بنيان ولما ارتفعت له أركان شداد . ويرد الغزالي على ذلك فيقول إن الصوفي بالفعل ليس هو النموذج العام الذي يطلب من المسلم اتباعه .. وعامة المسلمين غير مندوبين إلى الصوفية .. والصوفية في النهاية هم خاصة الخاصة وقلة القلة من القادرين المؤهلين على الجهاد الأكبر بترويض النفس ومخالفة الهوى والسلوك في بحار الغيوب واستطلاع الأعماق والأسرار .. وقد أراد الله أن تكون كثرة الناس من أهل الغفلة ليشتغلوا بعمارة الدنيا .. واستصفى القلة وقلة القلة لنفسه ..

والنبي عاش الصوفية والعزلة في مرحلة غار حراء التي استمرت أكثر من أربع عشرة سنة .. وأقواله وأحاديثه تشهد على الجانب الصوفي في شخصيته .

وبالمثل نجد هذا الجانب الصوفي واضحاً في رجل مثل علي بن أبي طالب .

ونجد عيسى معتزل الناس في خدوة تأمل مع نفسه يقضيها في البرية قبل أن يعود فينزل للناس .

ونجد موسى في خلوة الأربعين يوماً ينفذ مشيئة إلهية وشرطاً للتأهل والاستعداد ليصل إلى اللياقة والصلاحية الروحية لنزول الألواح عليه .

إن الجانب الصوفي كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من النوبة وإنما اختلف الأنبياء عن غيرهم في كمال شخصياتهم فجمعوا بين الفكر والعمل .. وبين العزلة عن الناس والنزول إلى الناس .

وهذا الكمال لا يتيسر للكثيرين .. وإنما نجد في الكثرة طغيان جانب على جانب .. فنجد من تطفى على شخصيته خصائص العمل ومن تطفى على شخصيته خصائص العزلة والتأمل .

ووجود الصوفي المتأمل والكاتب كالغزالي وابن عطاء الله والجيلي ، لا يمنع قيام رجل الفعل والعمل والقيادة كعمر وأبي بكر وخالد بن الوليد .

وإنما هو التنوع الضروري والطبيعي للشخصية الإنسانية كما تتنوع بصمات الأصابع .. ولا يحق لنا أن نصادر قيام نوع ونوجب قيام نوع .. بحجة أن هذا مع الإسلام وهذا ضده .. فإنها تكون مصادرة باطلة حتى من ناحية العقيدة .. فلم يخل القرآن من اللوحات الصوفية .. فهو في أكثر من مكان يصف الدنيا بأنها لهو ولعب ، ونها حصد الغرور ، ويحضنا على الزهد في بريقتها .. وهي نظرة صوفية .

وهو في عالم الشهادة لا يرى مشهوداً إلا الله وأفعاله ويقول لنا :

﴿ أَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ .

.. ويأمرنا أن نشهد بأن لا إله إلا الله .. وبأن لا مشهود بحق سواء .. ولا موجود بحق سواء .. وهي نظرة صوفية . ومن أساء الله أنه .. « الحق » .. وما سواء باطل وهي نظرة صوفية .

الصوفية إذن في جوهر الدين وليست ابتداءً في الدين . ويصح أن نسميها درجة تخصص .. يحرص أصحابه على استصفاء الدين من مرتبة الطقوسية إلى مرتبة الحب ، فتكون العبادة عندهم حباً لا طقساً .

وهم يبحثون عن الحقيقة لا لينقضوا بها الشريعة ليؤكدوها ويريدوها تثبيتاً . والصوفي الحق سلوكه عين

وإن هام قلبه مع الحقيقة .

ومع ذلك يجب أن نعرف أن الصوفي السالك يمكن أن يضل وتختلط عليه الأمور ويكون ضرره أكثر من نفعه .

والقائلون بأن أودية الصوفية هي أودية المهالك .. عندهم بعض الحق .. فالصوفي سالك في بحار الغيب . وهو لهذا معرض لكل الأخطار ، وأهون هذه الأخطار . الفرق في التيه .. والجذب .. وذهاب العقل .

ولكن الناجي الفائز في هذه المسالك هو الناطق بالدرر المتحدث بالجوهر .

ونجد هذه الدرر والجواهر في تراث الصوفية الذي خلفه لنا الأئمة العظام .. ولن نجد الواصل الحق منهم يقول : « أنا الله » .. بل يقول : « هو الله » .. فهذه نهاية المطاف في رحلة الحج في دروب الغيب .

« هو الله »

« هو »

كلمة « هو »

التي لا تعني أكثر من مجرد إشارة إلى ما تعجز عنه جميع الألفاظ والعبارات .. وما لا تحيط به اللغات .

« هو » .

محض إشارة .

ثم تسكت الألسن .. وتجف الأقلام .. وترفع لصحف .. ثم لا تبقى إلا العينان تدمعان بما لا سبيل إلى التعبير عنه .

سبحانه وتعالى عما يصفون .

فهو لا يوصف .. وما وصف نفسه إلا منزلاً لتذكره أفعالنا .. وما أطلق على نفسه الأسماء إلا تنزلاً منه لدعوه .

ولكنه فوق الأسماء والصفات .. فلا هو روح ولا هو جسد ولا هو مادة ولا هو صورة ولا هو معنى ولا هو فكرة ولا هو شيء .. ولا هو بمن يحل في زمان ولا هو بمن يتحيز في مكان ولا هو بمن يتحد أو يمتزج أو ينقسم أو يتعدد .. إنما هو غير كل هذا .

وهو متعال على كل ما نعرف .

وهو غيب الغيب .

وغاية ما يصل إليه العقل في تصورات هو . البهت ..

والحيرة .. والعجز ..

وذروة المعرفة هي العجز عن معرفته لهذا الأمر الذي يملأ

القلب ولا يجد له اللسان وصفاً ولا تعبيراً .

لا سبيل إليه إلا بالإسره .

ولهذا حفل القرآن بالإسراء . الم . الر . حم .. ن
ص .. ق وذلك حينما خطعت أنفاس العبارات عن بلوغ

مراميه .. فلم تبق إلا الإيماة .. والحروف المرتجفة التي تشير إلى الإيهام .
« هو »

نهاية الرحلة التي يمحج فيها العقل إلى الحقيقة . وهو إذ يبلغها .. لا يبقى له إلا أن يطوف عريان العقل خاشع لقلب مسلم الخواس .. وقد أسلم الفعل للفاعل .. وأسلمت الإرادة للمريد .. وأسلمت القوة للقوى .. وأسلم الحول لمن لا حول ولا قوة إلا به .

ونسأل المنكرين ..

من هم هؤلاء الذين وصفهم القرآن بأنهم :
- يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .
- والذين قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون .

- والذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض .

- والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .
- والذين إذا سمعوا آياته خروا إلى الأذقان سجداً ويكياً .
- والذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

- والذين اقتحموا العقبة وفكروا الرقية وأطعموا المسكين واليتيم في يوم ذي مسغبة ويوم ذي متربة .
- والذين أينوا تولوا فليس ثمة إلا وجه الله بما يورثه أمامهم .

- والذين يذكرون الله في أنفسهم تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول في الغدو والأصال ولا يفتلون مع الغافلين .
- والذين يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا يعدون بأعينهم عنهم يريدون زينة الحياة الدنيا ولا يطيعون من أغفل الله قلوبهم عن ذكره .
- والذين لا يرون في الدنيا إلا أنها هو ولعب وتفاخر وتكاثر في الأموال ولأولاد وأنها مثل زرع أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً .
- والذين التزموا أمر القرآن ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

- والذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار ، والذين هم عنده لمن المصطفين الأخيار .

أليست كل هذه الصفات في مجموعها هي ما ينطبق على المخلق الصوفي ، والمنهج الصوفي في التجرد وإخلاص الوجه لله وتفرغ القلب من شواغل الدنيا وجمع الهمة في الذكر ، وتعمير الوقت بالعبادة سجوداً وركوعاً وقياماً ونهحاً وبكاءً ودعاءً

فلماذا لا يطبق بعض القوم ذكر التصوف والصوفية ويرون فيها بدعاً من الأمر .

وإذا تركنا اللفظة نقسها .. لفظة الصوفية .. أليس المضمون والمحتوى هو ذات المضمون والمحتوى الذى وصفه القرآن . ولا نقصد بالصوفية في كلامنا أهل الخرق والشعوذات والمتسولين الذين رفضوا الأخذ بالأسباب ، وغالوا في الزهد وصاموا الدهر وانقطعوا عن النساء ، فتلك انحرافات نجدها في كل مذهب وفي كل ملة وهى لا تدين المذهب ولكنها تدين أصحابها .. فالشعوذون في الطب ليسوا حجة على الطب ولكنهم حجة على أنفسهم .. ومازال الطب علماً محترماً برغم أن بعض أهله انحرفوا واتخذوه تجارة وتدجيلاً .. ولا خلاف أننا ضد المنحرفين من كل ملة وقد كتبنا وأفضنا في انحرافات بعض لصوفيين ورفضناهم .

ولكن إذا قصرنا كلامنا على المعنى المقصود من الصوفية كما علمناها من الكبار الكامل أمثال الشاذلى والرفاعى والنفرى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم من الأكابر من أهل المجاهدات .. فنحن في صميم الإسلام لم نخرج عنه ، بل نحن في القلب من العقيدة الإسلامية ونحن في المرتبة العليا التى قال عنها الحديث إنها مرتبة الإحسان .. وذلك بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه . فإنه يراك .

ثم من هم أقدر الناس على تجسيد كلمة الشهادة : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

من ترتفع عندهم العقيدة إلى درجة الشهود .. بل وحدة الشهود . فلا يرون إلا الله في جميع ما يجرى حولهم من أحكام . إن كلمة « أشهد » تكاد تخص الصوفية وتصنفهم وحدهم فإن عموم الناس يرددون كلمة « أشهد أن لا إله إلا الله » بمعنى « أقر أن لا إله إلا الله » .. ولكن « أشهد » فيها خصوص معنى أقوى من مجرد الإقرار المنطقي أو العقلى ، فهى شهود بالعين وبالقلب وذلك أمر لا يستطيع أن يباشره إلا صوفى بلغ في إسلامه مرتبة الإحسان .. فهو يعبد الله كأنه يراه .. وتفطن في كلمة الحديث .. « كأنه يراه » .. إنه يحكى عن « نوع شهود » .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وتلك هى المرتبة الأدنى التى يمكن أن يشترك فيها الكثرة الباقية من المسلمين المحسنين .. إن الصوفيين المخلصين قد استصفوا بالفعل من القرآن أعلى مراتبه وتنطبق عليهم الآية ..

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾
ومن الواضح أن القرآن يشتمل على أوامر للعامة وأوامر للخاصة الذين يريدون القربى والزلفى .
للأولين يقول : اتقوا الله ما استطعتم .
وللآخرين يقول : اتقوا الله حق تقاته .

والصوفيون الكمل من أهل الله يختارون أحسن ما أنزل إليهم من الأمر ليكونوا أكثر قربى وزلفى ، وليكونوا أهل الله الذين هم أهله .. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .
هنا بالحق المجال الذى يستحق أن يتنافس فيه الناس ، وليس مكاسب الدنيا وعرضها الزائل .. فذلك هو المجال الشيطاني للتنافس .. وذلك هو التنافس السهل .. ولا يثمر إلا عرضاً زائلاً .

أما التنافس الآخر على رضا الله والقرب منه فهو الذى يثمر نعيماً باقياً ورضواناً أكبر لا حد له ولا منتهى .
وهم أقرب ما يكونون إلى الملائكة .. الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

إن التراث الصوفي في الإسلام ، خاصة التراث الصوفي السني الملتزم ، القائم على الشريعة ، لا ينحرف بالإسلام .. ولكنه يؤكد ويشرحه . وهو تنمة ومذكرة إيضاحية مهمة عن معنى الدين ، ومعنى الإسلام علماً وعملاً ومباشرة وقدوة .. وهو جدير منا بأن نقرأه ونتفهمه ونحققه ونستصفى أحسن ما فيه .. ففيه من الجواهر والآلئ والمراجع ما لا يستطيع أن يبلغه إلا الفواصون الذين أفردهم الله وعلمهم كيف تكون ملاحاة الأعماق ، واصطياد الحقائق .

الفردية والتفرد

عرفنا بصمة الأصبع كعلامة مميزة لشخصية صاحبها وعرفنا أنه منذ آدم لم تتشابه بصمتان حتى بين أبناء البطن الواحدة وحتى بين التوائم . واليوم نعرف أن للأسنان بصمة ، وكذلك للشفتين بصمة ، وللأذن بصمة وللصوت بصمة .. بل إن البروتين الذى تتكون منه خلايانا له في كل منا بصمة والكرات البيضاء في دماننا هي الأخرى مدموغة ومبصومة بعلامات مميزة على سطحها بحيث يتميز كل واحد فينا بماركة وهوية مادية يفرد بها .
وهذا لتوكيد من الخالق على فردية كل واحد منا دليل على أصالة هذه الفردية وأنها غير قابلة للتدوير ولا يصح لها أن تذوب في المجموع ، إلا إذا قرر صاحبها أن يضحي بها ويتنازل عنها ويذبيها فعلاً في مبدأ أو في رسالة أو في هدف شريف أو هدف غوغائى ، وإن هذه الفردية هي أمانتنا وأتنا مسئولون عنها يوم

﴿ إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

﴿ قالوا وجدنا آباءنا على عابدين ﴾ . (١٧٣ - الأنعام)

﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ . (٥٣ - الأنبياء)

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (٢١ - لقمان)

﴿ قالوا حسبتا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ (٢٢ - الزخرف)

فكل هذه المبرج باطلة وكل هذه الأعذار لا تقبل لأن الله

أنفرد كل واحد فينا بإرادة حرة جعل لها علواً على البيئة والظروف وعلى الجماعة لا يغلب هذه الإرادة الفردية غالب إلا إذا تنازل عنها صاحبها طوعاً واختار عدم الاختيار . وأثر التقليد والتبعية وأثر أن يكون عجيبة في يد غيره يشككه كيف يشاء وحسبنا لا يحق له أن يقول : قهرني فلان .. فحجة الله حسنة .. بل أنت الذي أعطيت له نفسك . وأنت الذي اخترت عدم الاختيار .. وأنت الذي فوطت في الأمانة التي في عمك .. والأمانة في فردانيتك وخصوصيتك التي فطرتك عليها مادياً ونفسياً وروحياً . فالسحق الذي قد يدرك ورجليك لم يكن

يستطيع أن يطمس على قالك أو يقيد نيتك ، فلماذا لم ترابط على الحق ولو بقلبك ولو في خاصة سرك ، وقد أعطيتك سريرة لا يقدر عليها الحديد ولا النار ، ولا سلطان للشيطان عليها ولو كان من مودة الجن .. وقد قال الله للشيطان من قبل : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

(٦٥ - الإسراء)

حينئذ تبطل حجة الكافرين وتخرس السنة الجرمين وتعترف الأيدي والأرجل على أصحابها ويظهر الحق وينزه الباطل .

ويقول الله تعالى :

﴿ هذا يوم نفتح الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ . (١١٩ - المائدة)

وهذا منتهى التدليل والتشريف للصادقين أن يقال عنهم إنهم يرضون عن ربهم وهو سبحانه وتعالى منزو عن حكمنا عليه ، وهو مستحق للمحمد والرضا في كل ما يفعل ولا حاجة له في رضانا ، ولكنها لفظة 'حب للمؤمن الصادق' فلا حجة إذن للتملل بالاجتماع والبيئة والظروف والعائلة والقبيلة فقد أفرد الله كلا منا بمصير شريف صيل يستطيع أن يقف وحده أمام المجتمع والظروف والبيئة والعائلة ويستطيع أن يصنع قراره منفرداً حراً . ويؤكد الله - تعالى هذه الفردية وبأنها مناط المحاسبة ، وبأننا

سوف نلتقي بالله أفراداً لا جماعات .

﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ . (٩٥ - مريم)
﴿ ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾ . (٨٠ - مريم)
﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . (٩٤ - الأنعام)

﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ . (١١ - المدثر)
إن هذا الموقف الهائل سيقفه كل منا وحده فرداً منفرداً أمام الله الفرد الصمد مصداقاً للوحدانية المطلقة في المسئولية والوحدانية المطلقة في الحكم .

﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

(١٦ - غافر)

فرد أمام فرد .. وفردانية كل منا حق يمثل ما أن فردانية الله حق وكل منا واحد صحيح لا يقبل القسمة .

وهذا تأكيد من الله بأن النفس حقيقة مطلقة ، وليست مجرد وعاء للظروف الموضوعية كما تصور كارل ماركس في فلسفته المادية ، وبأن لها علواً على الظروف وعلى البيئة المادية ، بعكس ما رعم فقهاء الماركسية الذين جعلوا للبيئة والظروف وللجميع علواً قهرياً على النفس وسلطة حاكمية عليها .

وتلك هي البراءة التي أعطاها الله للنفس وللتوكيد المطلق بأنها من عنصر شريف لطيف وأن لها حاكمية على كل صنوف المادة .

وذلك مذهب العارفين وقانونهم .. أن اللطائف تحكم الكثائف .. ألا يحمل أعمدة مجال الجاذبية هيكل الكون كله .. وما هي أعمدة المجال .. وما الجاذبية ؟ ..
ألم يخرج العقل الطاقة الذرية من القمم وينسف بها الجبال ، وما العقل إلا هذا نور اللطيف الذي نرى على ضوئه كل شيء .

ألا يحكم الضمير الجسد .. وما الضمير ؟
ألا تدفع قوة البخار بقاطرة وعشرات العربات الحديدية من ألوف الأطنان .. وما البخار ؟
ألا تحرك الكهرباء الموتورات وتقوم بتشغيل المصانع وما الكهرباء ؟

إنها جميعها لطائف تحكم الكثائف .. والنفس أطفها جوهرأ .. إنها الواحد الصحيح الذي تخرج منه كل الأعداد والكسور لعشرية واللوغريتمات ، وكل الحساب والجبر والهندسة .. وكذلك جاءت لشرية بأعدادها من النفس الأولى لكلية .

والنفس الكلية هي أول ما خلق الله :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ .

(١ - النساء)

إن أول ما خلق الأحد كان الواحد .. ومن الواحد جاءت جميع الأعداد :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ﴾ .

ولكن تظل حقيقة النفس لغزاً وتظل سرّاً مطلقاً .. هل كان لنا خلق أول في أحسن تقويم ، وكان لنفوسنا وجود سابق عند الله :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ . (٤ - ٥ - ٦ التين)

إن الله استثنى الصالحين في الأجر فقط ، ولكن كان حكمهم كحكم الباقي في النشأة .. لقد كانوا في أحسن تقويم ثم ردوا إلى أسفل سافلين ، فهل ما نحن فيه الآن هو أسفل سافلين ..؟؟
اختلفت التفاسير والعلم عند الله ، ولكن تظل القضية الثابتة : إن النفس حقيقة الحقائق .. وأنها تنتقل في الأحوال وأن الجسد يبلى ويموت .

في حين هي لا تموت .. وأنها مناط التشريف ومناط لحساب ومناط المساءلة .. وأنتا لم تخلق سدى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ . (١١٥ - المؤمنون)

﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ (٣٦ - القيامة)

إن خلق كل شيء كان بالحق وللحق ، وإن الحياة خبثت لتستمر بعد الموت في كفيات لا نعلمها ، وإن الرواية لن تنتهي بالموت بل سوف تتعدد فصولاً إلى ما لا نهاية حيث تكون الغاية هي البقاء بالله في الإطلاق .

﴿ يأأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ . (٦ - الانشقاق)

فالكدح سوف يتصل إلى ما لا نهاية عروجاً إلى الله في المطلق ، وتلك هي الهجرة التي أرادها الله ، لجميع الأنفس وما أشرفها وما أعظمها من هجرة وما أهون المشقات ، وما أهون عثرات الطريق إذا كان الموعد الله وهل بعد الله غاية ..؟

تبارك الذي ليس كمثله شيء .

بدونها لا سبيل إلى فهم أى شيء ولا سبيل إلى استمرار أى
شئ ، ليس فقط ضرورة عقلية أو ضرورة فلسفية ، بل ضرورة
وجودية بعته .

الإنسان والله والكون قصة واحدة لا يفهم أحدها
إلا بالآخر ولا ينفصل طرف منها عن الآخر فالله يفارقنا بعلوه ،
ولكنه فيما وأقرب إلينا من حبل الوريد . فأينما تولوا فثم
وجه الله . وهو معكم أينما كنتم ما يكون من نجوى ثلاثة
إلا وهو رابعهم بل هو الجمال فى كل جميل والقوة فى كل قوى
والقدرة فى كل قادر وهو سبحانه نور السموات والأرض .
ويؤكد لنا الدين هذا الشعور دون تفلسف فيعطى المؤمن
جرعة من الراحة والسكينة والطمأنينة تكفيه مدى عمره فلا
يعود يسأل أو يتساءل وإنما يطلق يسعى ويعمل جاهداً فى سبيل
الخير والبر ، غير ناظر إلى مكافأة أو عوض لأن الله دانه هو
العوض ، وليس بعد الله شئ ، ثم هو يسعى دون خوف من
مرض أو موت فهو يعلم أنه لا موت وإنما كدح إلى الله وسير فى
المنازل وصعود فى معراج من التحولات لا يعلم كيف تكون فذلك
غيب ولكن إيمانه يقنيه ويمتد به عبر الغيب وبطول الشهادة
كلها .

والعلمانيون الذين يستكبرون علينا المروجة بين العلم والدين
يأخذون علينا الكلام فى الدين بلغة العلم .. وهم يمشون فى

الدين والعلم

ليس بإنسان من لم يتوقف لحظة فى أثناء عمره الطويل ليسأل
نفسه .. ما الحكاية بالضبط .. من أنا ومن أكون ، ومن أين
جئت وإلى أين أذهب ، وما مصيرى وما الحكمة من الألم ،
وما الهدف من الوجود ، وعلام هذا اللهاث المجنون وآخر
السعى موت وتراب ولا شئ .. إن الحياة دون إيمان ودون يقين
بوجود إله عادل هى عبث صرف بلا معنى وبلا سند وبلا
رصيد .. وهى عذاب بلا حكمة وألم بلا عوض ومغامرة بلا عائد
ومشروع بلا ضمان .

والإنسان إذا خلت حياته من الله هو مشروع فاشل نهايته
اليأس والانتحار . وإذا كانت الحياة استمرت ثلاثة آلاف مليون
سنة فلأن الله فيها ومعها ومن ورائها ومن حولها يهديها ويدعمها
وساندها وينورها .. ووجوده سبحانه وتعالى ضرورة مطلقة

اشفاق على أنفسهم طول الوقت فهم يقسمون الحقيقة إلى أجزاء
وينصرون أن كل جزء له علة خاصة .. فهذه علة للدين وهذه
علة للعلم وينسون أن تشريح الحقيقة يقتلها لأنها بطبيعتها
بسيطة وشاملة .. فالدين في ذاته علم .. هو علم بالله والعلم بالله
لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته ، فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن
المعرفة بصنعه .. بل إن كل معرفة منها تؤيد الأخرى وتعزدها
ولا تناقضها أو تنفيها .. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة
القوانين ووحدة الخامة وأنسجام الألوان والأشكال ، هر خير
شاهد على وحدة الصانع .. والكون هو مجال لقدرات الله وأفعاله
وصفاته ..

والتاريخ هو المشيئة الإلهية التي تتحقق شفريا في الحوادث ..
والتنطور التكاملي في الكون هو ذلك الكدح إلى الله صعوداً مرتقى
بعد مرتقى .. ونحن نرى الله في كل شيء .. وليس ذنبنا أنهم
لا يرون الله في أى شيء .. وأن نظرتهم تقف عند حدود
الميكروسكوب والتليسكوب وشاشة الرادار .. وأنهم يقسمون كل
شيء إلى ألف جزء وجزء ثم يتيهون في الأجزاء ولا يرون
إلا الأجزاء .

والعلم تراث للجميع ولا يستطيع أحد أن يدعى ملكية العلم
لنفسه ، ولا يوجد علم روسي ولا علم أمريكي ولا علم
إنجليزي وحقات العلوم ملكية مشتركة وهى موضوع استنصار

العالم والفيلسوف والمفكر ورجل الدين ، دون أن يتهم أحدهم
بالتبعية لأحد .. فالتماس الحق من جميع سبله المتاحة هو أوجب
واجبات العقل .

وعيب العلمانيين أنهم يخلقون تناقضاً بين العلم والدين ثم
يعودون فيخلقون تناقضاً بين العقل والوجدان ويعيشون في
انشقاق دائم في أنفسهم وعلى أنفسهم وذلك لبعدهم عن الرؤية
الشمولية ولغرقهم في الجزئيات ولو أن رؤيتهم ارتفعت عن الجزء
والتحمت بالكل لذابت كل هذه التناقضات ولرأوا الانسجام
الشامل في كل شيء ولكانوا من الذين فهموا الآية .

فأينما تولوا فثم وجه الله .. إن الله واسع عليم .
فما كل هذا التلوين والتصنيف في الأشكال في هذا المتحف
الكوني إلا تعبير عن السعة الإلهية والعلم الإلهي الذى أحاط
بكل شيء فهم أينما تولوا فإنهم يقرءون كتاب الله ويستجلون
آياته .. فليس ثمة إلا هو .. وما من الله بد .
يقول الله للعبد الصالح في كتاب المواقف والمخاطبات
للنفرى : «أنا في عين كل ناظر» ومعنى ذلك أنه في المشهد وفي
الشاهد وذلك هو الوجود مطلقاً فسبحان ربى الذى وسع كل
شيء رحمة وعياً . لو قرأت القرآن فأنت في كلماته .. ولو قرأت
كتاب الكون فأنت في صنعه . ولو قرأت في العلوم الطبيعية
فأنت في قوانينه .. ولو قرأت التاريخ فأنت في مشيئته . ولو

قرأت في الفنون فأنت في تجليات اسمه « البديع والخالق والمصور » ولا مهرب لك منه .. أتى توجهت فأنت في إحاطته .. وأجدادنا في صدر الإسلام فهموا الإسلام أحسن ما فكان الواحد منهم أمة ودائرة معارف كان ابن سينا عالماً وطبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وحجة في الرياضيات ومثله الرازي وابن رشد وابن الهيثم وغيرهم .. لم يكن الواحد منهم يضع الدين في علية ويضع العلم في علية ويقول لا أدخل هذا في ذاك ولا أدخل ذاك في هذا وإنما كان كل منهم عقلاً شمولياً ورؤية شمولية .. وكان كلما ازداد شمولاً في النظر ازداد قرباً وفهماً للدين والعلم على السواء ، حتى المفسر السلفي الذي يحتاج به الخصوم لم يكن مغلقاً على المعلومة الدينية القرآنية بل كان يحاول أن يستخدم العلوم المتاحة في عصره لفهم آيات القرآن الكريم .

حينما فسر السلف « وأرسلنا الرياح لواقح » يقولون إنها الرياح تدفع السحب فتسقطها على الأرض مطراً ، فنلقحها وتخصبها كانوا يستعينون بالعلوم الطبيعية في زمانهم ونحن اليوم حينما اتسعت معارفنا نقول هي الرياح تحمل حبوب اللقاح من رهرة إلى زهرة فنلقحها ، ثم حينما اتسعت معارفنا أكثر نقول هي الرياح تحمل درات التراب وتلقى بها في السحب فتعمل كبذور تتجمع حولها الفطريات فهي كأنما تلقحها ، وهكذا كلما تقدم ركب العلم كشف لنا المزيد من مغاليق هذه الآية الكريمة .

إننا نسير على نفس الدرب خلفاً عن .. ف لم نأت بدعاً من الأمر ، بل إن السلف كانوا أحياناً يعلنون في هذا التفسير العلمي ، فيقعون في الخطأ ، فنرى الطبري على ارتجاع قدمه في التفسير يفسر الآية : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » بأنها الدجاجة تخرج من البيضة والبيضة تخرج من الدجاجة ، وأنها الجنين يخرج من النطفة المنوية ، ولنطفة المنوية تعود وتخرج من الرجل البالغ .. ونعرف الآن إن المثل العلمي الذى ضربه الطبري مثال خاطئ .. فالبيضة والدجاجة هي حى يخرج من حى وكذلك النطفة هي حيوان منوى حى يخرج من حى .. ولكن الطبري كان له عدده فهكذا كانت العلوم المتاحة زمانه .. ولقد أخطأ أرسطو خطأ كبير حينما قال بتولد الديدان من الجبن القديم وخروج الحياة من تخمر المواد الميتة .. واليوم يعرف أصغر تلميذ في أى مدرسة ابتدائية أن دود المش يخرج من بيضة ذبابة المش ، وأن التخمر يحدث بسبب ميكروب الحميرة ، وليس العكس .. هي أخطاء وقع فيها أكابر .. ولكنهم اجتهدوا فكان لهم أجر حتى على أخطائهم .

ولكن الخطأ الذى لا يغفر أن يتوقف الاجتهاد وأن يجبن العلماء خوف من أن يقال إنهم أدخلوا البدع .. وأن يتقاذف الناس الاتهام بالكفير .. وأن يغلق رجل العلم على علية العلم ، وأن يغلق رجل الدين داخل قوقعة الدين ، وأن ينعدم

التواصل ، وأن ينحل التفكير إلى جزر مفصلة غير مترابطة ،
وأن نفتقد الرؤية الشاملة ، وأن يفتقد كل واحد في تخصصه فذلك
داية الانحدار والأقول والتخلف الحضارى .

الملك والمملوك .. وأنا

وصف الله نفسه بأنه الله . وبأن له ملكاً ومملوكاً وجنداً
مجددة وملاً أعلى ، وأنه قد وكل إلى كل فرد من هذا المملأ الأعلى
مهمة يقوم بها فجبريل الروح الأمين هو رسول الوحي ، وهو
الواسطة بين الله وجميع أنبيائه ، وميكائيل مكلف بالأرزاق ،
وإسرافيل نفخ الصور يوم تقوم الساعة وعزرائيل قابض
الأرواح :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ .
(سجدة - ١١)

ذلك ملك الموت .. وهم أكثر من ملك :
﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ . (الأنعام - ٦١)

ثم هناك الملائكة الحفظة :
﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ . (الطارق - ٤)

والملائكة الكاتبون :

﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾

(الانفطار ١٠ - ١١ - ١٢) .

والملائكة الصافون والملائكة المسبحون والملائكة الحافون بالعرش والملائكة العالون وملائكة التصريف .

ملك عظيم من فوق سبع سموات لا يتناهى .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن .. لم لا يباشر الله جميع هذه الشئون بذاته مادامت بيده مقاليد كل شيء وإليه يرجع الأمر كله ؟ فلماذا لا يفعل بذاته وبدون وسائط ؟

وما الحاجة إلى كل هذا المألأ ؟ والجواب .. أنها سنة الله فى خلقه . فهو يجرى الشفاء على يد جراح ، وكان فى قدرته أن يشفى بذاته وهو يجرى الأرزاق من باب تجارة أو من باب صناعة ، وكان فى قدرته أن يوصل المال إلى أصحابه مباشرة دون أسباب .. وهو يوصل إلينا العلم بوسائط الكليات والجامعات والمدارس بل هو يوصل العلم إلى أنبيائه عن طريق جبريل .. وكان بالإمكان أن يلقيه فى روعنا مباشرة .

حتى المعجزه الخارقة فإنه يجرىها بواسطة فيقول عن الحمل الحارق لمريم :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾

ويقول جبريل لمريم :

﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾

وهو أمر كان يمكن لله أن يفعله مباشرة .

تلك إذن سنته فى الدنيا .

وتلك أيضاً سنته فى الآخرة حيث يقيم على النار ربانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وحيث يقيم على أبواب الجنة ملائكة الرضوان .

حتى عرشه العظيم سبحانه يقول لنا القرآن إنه محمول بحمله ثمانية

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

وهم يحملونه ولا شك بقوة الله ذاته فما ضرورتهم .. والجواب لضرورة سوى كرمه هو .. حيث شاء بكرمه أن يعطى صفاته الشافية للطبيب ، ويتجلى بأحكام اسمه العليم على المعلم ، ويتجلى باسمه الرزاق على التاجر ، وباسمه البديع على الفتنان ، ويتكرم بقوته على حاملى عرشه ، فتلك كلها شواهد كرم منه لا شواهد حاجة إلينا .

ثم إن الوسائط أيضاً هى سنته .. فهو إذاً أراد أن يعالج الجبل سلط عليه وسائط مادية مثله لتشكيله سلط عليه الرياح والأمطر والسيول تنحته وتشكله ، أو سلط عليه كئناً مادياً مثل الإنسان ينحت فيه الكهوف والسدود .. ولو أنه سبحانه تجلى على الجبل مباشرة لجعله دكا .

وحسبما ظهر جبريل على صورته الحقيقية لمحمد عليه الصلاة والسلام خر مغشياً عليه .

إن تفاوت المقامات بين الله وملائكه وبين ملائكته وخلقه من البشر وبين البشر وسائر صنوف المادة الجامدة استدعى وجود البرازخ والوسائط .. فلا يطبق الأسفل أن يتجلى عليه الأعلى مباشرة .

إننا نقذف نواة الذرة وهي شيء غير منظور بشيء آخر غير منظور وهي قذائف النيوترون فتتخذ وسائط من جنس ما نتعامل معه .. فنحاول الوصول إلى الشيء الخفى باتخاذ برزخ خفى . وجبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو أيضاً البرزخ بين الله وبين جميع أنبيائه . لأنه لا أحد من الأنبياء يطبق الحضرة الإلهية الذاتية مباشرة . فإن تجلى هذه الحضرة يؤدي إلى سحق ومحق كل شيء .. غمناً كما رأينا من حال الحبل الذى أصبح دكا . وموسى الذى خر صعفاً . إننا بحكم طبيعتنا البشرية لا نحتمل أنوار الذات الإلهية فاستدعى التواصل بين الطبيعتين إلى اتخاذ البرازخ . وكما أن جبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد ، فكذلك محمد عليه الصلاة والسلام هو برزخنا الأعظم ، وهو وسيلتنا وواسطتنا وبابنا إلى الفهم عن الله .. لأننا بحكم طبيعتنا المحدودة لا نستطيع أن نصل إلى حضرة الإطلاق دون دليل .

إن الضرورة هنا كانت قيداً علينا نحن ، فنحن الضعفاء والله هو القوى ونحن الفقراء إليه وهو سبحانه الغنى عنا .

وكان تنزل الله بين البرازخ ليتواصل معنا كرمًا منه ولطفًا وإيناسًا .. لا حاجة منه إلينا فأهه ليس فعالاً بنا ، بل نحن الذين تفعل به ونحن الذين نرى به ونسمع به وفهم به ونحشى به ونحيا به .. بل إنه هو هو الظاهر بوجهه فى كل شيء : ﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

فهو الملك ، وهو هو جميع القوى الفعالة فى المملكة وهو هو جميع ما فى هذه المملكة من حق وخير وجمال وعدل وكرم وحلم ورافة ومودة ورحمة وسمع وبصر وعلم فتلك جميعاً أسماؤه تجلت بأحكامها على ما فى المملكة من خلائق .

فإذا سحب منا ربنا قيوميته عدنا عدماً واختفى مسرح الوجود كله ولم يبق لا بوره ، فهو الحضور لمستمز أبداً وأزلاً وهو الظاهر ونحن الغيب .. وهو الوجود ونحن العدم .. وهو الحجة على نفسه وهو برهان وجوده ودليل ذاته .

من مبدأ القصة حينما كان الله ولا شيء معه إلى الآن حيث مازال على ما عليه كان .. لم يجد جديد .. فكل ما حدث كان تحصيل حاصل لما فى علمه .. ومازال هو على ما عليه كان فالقول بحاجة لله إلى وجوده ومملكته يعكس لقصة ونقدها . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. فلا شيء فعال فى ملكه ومملكته

سواء إنما هي ثياب البسها لنا ومواهب أعطاها لنا وأرزاق رزعها علينا . بل إن لبسة الوجود ذاتها منه .. وليس لنا من ذواتنا إلا العدم .

بل اللغز الذى يحيرنى .. هو ذاتى نفسها أنا .. من أكون .
أما أحقية الله فى كل شيء فهى أظهر من أن تكون محل شك أو مساءلة . وبالمثل وجوده وهيمته وظهوره .
إنما أنا .. ذرة العدم .. التى هى نفسى ما أمرها .. وما خطبها وكيف تشخصت من الأزل .. وكيف جاء بها الله ومعها سرها وما تكتم . ثم أوجدها ليخرج مكتومها وابتلاها بالشر واخير لتفصح عن سرها وتفشى مكنونها .
أنا ...؟

وهل لى هذه الأنا .. أم أنى استعرتها مع ما استعرت من الله .. فهى ثوب ضمن ما ألبسى الله من ثياب .
ذلك هو السر الذى يحيرنى برغم أنه لا شيء أقرب إلى منها .. وهل هناك ما هو أقرب إلى من نفسى التى بين جنبى .. ومع ذلك فهى الطلسم .. والتيه .. والمحال .
ثم إن اللغز يصل إلى ذروة استساراه حينما نرى الله يأمر لانتكته بالسجود لهذه النفس التى تشخصت من عدم ويسخر لها ملكه وملكوته ويخضع لها الكون جميعه :

﴿ سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ .

يقول الله للعبد الكامل فى كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى : أنت منى .. أنت تلىنى .. وكل شيء فى الوجود يأتي بعدك .. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .. فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار ، أقوى من الحروف والأسماء أقوى من كل ما بدا فى دنيا وآخرة إذا تحققت بسرك تحققت بى .. أنا الذى منه كل شيء أنا الذى أهديت كل شيء .. أنا الذى هو أنا .
إلى هذه الدروة المذهبة من لتشريف تصل هذه النقطة العدمية التى هى النفس الإنسانية . فيقول عنها رب العالمين :

أنت منى
أنت تلىنى وكل شيء فى الوجود يأتي بعدك لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .
فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء .. أقوى من كل ما بدا فى دنيا وآخرة .

ويقول للعبد الكامل :
إذا تحققت بسرك تحققت بى .. أنا الذى منه كل شيء .
كيف يارب يتحقق الواحد منا بسره .

إذا عرف مقامه ولزم مقامه .

ليس فقط أن يبلغ مقام الكمال ، بل أيضاً يلزم هذا المقام فلا
يوجد عنه .. وذلك هو غاية التمكين والتثبيت .

وذلك هو المعراج العظيم الذى لا يقدر عليه إلا آحاد ، بل
إن الملك والملكوت ذاتها مجرد معارج لهذه النفس الكاملة والدنيا
والآخرة منازلها وهى تسير إلى ربها وقد أقدرها الله على الدنيا ..
وعلى تجاوزها كما أقدرها على الآخرة وعلى تجاوزها فى مراقى
السير إليه تلك هى النفس الطلسم المثلسم .

وتلك هى إمكاناتها حيث اجتمع فيها أقصى العدم وأقصى
الوجود .

وحيث هى منى أقرب إلى من كل شىء ، وأخفى على من كل
شىء .

وحيث يبلغ إيهامها بى إلى البهت والخيرة والذهول :

من أنا ..

ومن أكون ..

أنا الذى أسجد لى الله الملك والملكوت ، وسفر لى الكون
أجمع .

أنا الذى أمرض وأشيخ وأموت ، ويفتك بى ميكروب لا يرى
لفرط تفاهته .

أنا الذى جئت من قطرة ماء وأنتهى إلى جيفة .

إلهى كم تكذب المظاهر وكم تخفى جلودنا حقائق هائلة
نحتها .

وكم تتشابه وجوهنا وتختلف منازلنا .. وكم يمشى فى الأسما
لالمخرق من هم فوق الشريا منزلة .

لخفى على ذلك اليوم الذى تهتك فيه الأستار ويعرف كل منا
من يكون .

وترفع الحجب ويكشف الغطاء ويغدو البصر حديداً ويهاجأ

كل منا من نفسه بما لا يعلم ..

ويعرف كل منا من يكون ..

ياله من يوم ..

ياله من يوم ..

عن التطور

الكثير من رجال الدين لا يحتمل كلمة « تطور » ويرفض موضوع التطور برمته ، ظناً منه أن التسليم بالتطور يستتبع الاعتراف بأن الإنسان جاء من سلالة القردة وهو فهم خاطئ . ودارون نفسه لم يقل بأن الإنسان جاء من سلالة أى قرد من القردة التى نعرفها .. بل هو يجزم بأن جميع هذه القردة لن يتطور أحدها إلى إنسان ولو امتد الزمان إلى ملايين السنين أو إلى أحقاب وآباد .

وعلم الوراثة والجينات هى الأخرى تنفى خروج الإنسان من قرد ، فالخريطة الكروموسومية للقردة مختلفة عن الخريطة الكروموسومية للإنسان بشكل ينفى خروج أحدهما من الآخر . بل إن علوم التطور نفسها تقول إن كل جنس من الأجناس الموجودة هو نهاية عمياء وحارة سد بحيث لا يمكن أن يؤدي

جنس منها إلى جنس آخر .

وما يحدث فى حالة التهجين والتقليم والتطعيم بالجينات من فرد إلى فرد هو خروج نوعيات جديدة بالمرة . والكلام على أن السلالة البشرية جاءت من حلقة مفقودة تشعبت منها الحياة إلى فرعين : فرع خرجت منه سلالة قردية وفرع آخر مختلف خرجت منه سلالة بشرية .. هذا الكلام هو نظرية ظنية يمكن أن نرفضها دون حاجة إلى رفض التطور من أساسه .

وعلمياً لا يمكن لأحد أن يرفض التطور من أساسه .. لأن الحقيقة الجوهرية فى التطور . وهى خروج السلالات من بعضها البعض وتنوعها بتكرار التزاوج وتكرار التوليف بين الأمشاج أو الجينات (المورثات) .. ثم ظهور طفرات جديدة فى سلالات بين وقت وآخر .. هذا الكلام هو كلام علمى ثابت بالنجربة وهو كلام موضوعى ومؤكد .. وليس كلاماً ظنياً يقبل الطعن .

ثم إن تسلسل المخلوقات الحية فى الزمان الحيولوجى بشهادة الحفريات تؤكد ظهور الإنسان فى آخر السلسلة التى بدأت من ثلاثة آلاف مليون سنة صعوداً من كائنات بسيطة وحيدة الخلية إلى عديدة الخلايا .. رخوية ثم قشرية ثم فقرية .. ترتقى هونا مع الزمان درجة بعد درجة وتنوعاً بعد تنوع من بكتيريا إلى طحالب

إلى فطر إلى سرخسيات إلى زهريات في المملكة النباتية . ومن البروتورا إلى الإسفنج إلى الديدان إلى القشريات إلى لعناكب إلى الحشرات إلى الأسماك إلى الضفادع إلى السلاحف إلى الطيور إلى الثدييات بأنواعها وأعلاها الشمبانزى . وعمر الإنسان في أرشيف الصخور الثابت هو حوالى المليون سنة زيادة أو نقصا .

في حين أن عمر أية حشرة يزيد على خمسمائة مليون سنة .. وعمر الطحالب ثلاثة آلاف مليون سنة ، وأول خلية طحلبية لها حفرة ثابتة مرسومة على الصخور منذ ثلاثة آلاف مليون سنة .. وعالم التطور قد يكذب وقد يضل السبيل بحسن نية .. ولكن الصخور لا تكذب .. والجيال لا تضل السبيل لأنها تعمل بأمر الله وقوانينه دون تصرف .

ثم إن التكيف والتأقلم بين كل جنس حيوانى وبيئته ، وبين كل جنس نباتى وبيئته وتطور نفس عظام الأطراف لتصبح هى ذاتها أجنحة فى الطيور ، وزعانف فى الأسماك ، وسيقان فى الدواب ، ومجاديف غشائية فى الضفادع .. هى الأخرى حقيقة تشريعية .

ثم إن خروج الشرايين من القلب بخطوة واحدة وعودتها بخريطة وريدية واحدة إلى الرئتين فى الأرنب والكلب والذئب

والفأر والفيل والحوت والحمامة والسلحفاة والفرد والإنسان ليست مصادفة .

ثم إن تخلف بعض من الأعضاء المنقرضة بلا وظيفة فى كل مجموعة حيوانية فى أثناء ترقبها من عتبة إلى عتبة .. هى بصمات تشير إلى الماضى .

إن الكم العلمى الهائل من الشواهد لا يمكن كتمه بمجرد إشاحة باليد وبمجرد الرفض الساذج للموضوع كله .

وقد انقسم العلماء أمام هذه الشواهد اسحيرة إلى مؤيد بدرجات للتطور ، وإلى رافض بدرجات ولكن الرفض الكامل بات مستحيلا لأنه ببساطة موقف غير علمى .

وخلق الإنسان بنشأة مستقلة غير مسبوقه بأجداد أو أسلاف حيوانيين لا تعنى أن كل فرد فى مجموعة الحيوانات والنباتات جاء بنشأة مستقلة .

إن النباتات الزهرية وحدها أمكن إحصاء خمسمائة ألف مصنف منها .. فهل معنى هذا أنه يلزم لكل صنف منها نشأة مستقلة .

وما الذى يدعونا إلى هذا التفكير المعقد إذا كتب هى بالفعل تندرج فى عائلات ، والكثير منها يقبل التهجين بين بعضها البعض .

إن المنطق البسيط سيقول بأنها تنوعات سلالية جاءت

بالتزاوج المستمر بين تواليف متعددة من الأمشاج والجينات انضافت لها عديد الصفات التي استجبت بالتكيف مع بيئات متغيرة ، وأنتجت هذا المتحف الباهر من النباتات .

وما يقال عن النبات يقال عن الحيوان .

وقد تصح النشأتان معاً .. النشأة المستقلة للبعض والنشأة التطورية السلاية التي يستنبط فيها البعض من البعض الآخر .. فتصح النظريتان دون مصادرة .

ثم إن التطوير والتحسين ليس فيه إنكار للخالق .

فإن تطوير كل شيء وتحسين كل شيء مرده إلى الله .. وقد قال بذلك دارون نفسه في رده على الكنيسة .

والتحسين لا ينفي العناية الإلهية .. بل يؤكدھا !

والترقى في الزمان هو قانون الله وستته لكي يكون للزمان حكمة ، ولكي يكون لجهد الكائنات وحلاها مع الظروف ثمرة وغاية ومعنى ، فلم يحدث ما حدث لنقص أو عجز في خطة الخالق تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. وإنما هو أمر مراد للحكمة .

وإذا كانت الكنيسة قد وقفت هذا الموقف من العلم لجمودها ولسيطرة الكهوت في فترة من الزمان على السياسة والفكر .

فإننا نقول .. ليس عندنا كهوت ولا ححر من علماء الدين على العلم .. بل إن ديننا نفسه علم وهو يأمرنا بالعلم .. ويأمرنا بالنظر .. بل إنه يأمرنا بالنظر في هذا الموضوع بالدات موضوع

كيفية بدأ الخلق :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

(العنكبوت - ٢٠)

ويعلم الله أننا سوف نختلف في هذا الموضوع وسوف نضل ونخطئ ونصيب وسوف يطول بنا المشوار ، ربما إلى قيام الساعة .. ومع ذلك أمرنا .. فأمره واجب .. واحتلافه لا غبار عليه .. ولا يجوز أن يكفر أحداً الآخر .. وإنما علينا أن نتعاون .. في مودة .. ودونما تعصب لرأى .. فالقرآن نفسه حمال أوجه .. وآيات الخلق في الكتاب من مثبته القرآن وليست من محكم القرآن لأنها تحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير . بل إن كلمة الأطيوار جاءت بنصها في إحدى الآيات :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خقكم أطواراً ﴾

(١٣ - ١٤ : نوح)

وفي آية أخرى :

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾

(نوح - ١٧)

وفي آية تكلم القرآن عن خلق الإنسان من طين ، وفي آية ثانية

من سلاله من طين :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ﴾

(المؤمنون - ١٢)

وفي آية تكلم القرآن عن حين من الدهر لم يكن للإنسان شأن
مذكر :-

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً
مذكوراً ﴾ . (الإنسان - ١)

والكلمة النهائية في مراد هذه الآيات لا يستطيع أحد أن
يدعيها فلا يعلم مراد الله إلا الله .. وإنما الكل يجتهد ويصيب
ويخطئ .. فالباب مفتوح لكل صاحب علم .

كما أن الكلمة النهائية في مشكلة أصل الإنسان من الناحية
البيولوجية العلمية لا يستطيع أحد أن يدعيها فمازال الأمر رهن
البحث والباب مفتوح للاجتهد .

فلا داعي لافتعال معارك والتعصب لأي جانب دون الآخر بلا
حجة أو برهان .

ثم إن القرآن لم يتكلم عن خلق الإنسان باعتباره عملاً لحظياً
فورياً ، وإنما يروى لنا أنه تم على مراحل :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا
سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين ﴾

(ص - ٧١ - ٧٢)

بقول ربنا جل وعلا : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ..
فكيف كانت التسوية .. وكيف كان النفخ في الروح !
تلك مراحل .

وفي آية أخرى يؤكد هذه المراحل .
﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

(الأعراف - ١١)

خلقناكم ثم صورناكم .. تلك مراحل .. و « ثم » .. تقتضي
زمناً إلهياً .. (واليوم عند الله بألف سنة مما تعدون ، وفي آية
قرآنية أخرى بخمسين ألف سنة) . فهو إذن زمن مديد ،
وأحقاب .

ثم إن الخلق والتصوير يأتي في الآية سابقاً على آدم وعلى أمر
الإسجاد له .. فأين كان .. إنه . لا يمكن أن يكون تصويراً جنينياً
في الأرحام .. لأنه مذكور قبل آدم وقبل الذرية .. وقبل إسجاد
الملائكة .. وآدم مازال وحيداً ولا ذكر لحواء بعد لنقول إنه تصوير
جنيني في أرحام .

والآية بنصها من آيات الأسرار التي لا تفهم دون تأويل ..
وبالمثل كلمة « تسوية » :

﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء .
(الانقطار ٧ - ٨)

ركبك ﴾

لماذا بقول ربنا « فعدلك » .. أكان به اعوجاج فنقله الله
سبحانه وتعالى بالتسوية إلى حال الاعتدال
إن فيها المعنى الواضح للترقية والتحسين على أحسن تقويم

وإسرائيل السائر إلى الله .. وهكذا .. بل إن في اللغة الفرنسية
الضمير « هو » ينطق أيضًا « إيل » ، ومعلوم أن الضمير
« هو » من أسماء الله وفي التوراة يهوه - ي ياهو .
أما « الرحمن » فقد جاء في تصوص تدمر قبل الإسلام
« رحمانا » وفي اللغة الإيرانية رحمن معناها السلام وفي اللغة
الحيشية رمان ورامون إله الصواعق وفي اللغة الآشورية رحمان هو
الإله البابلي وله معبد في مدينة آشور وفي اللغة السنسكريتية
الهندية « رهيم » تسمية بردها الصوق على مسبحته - وهي
تقابل عبدًا رحيم .

والفرق بين الرحمن والرحيم أن الرحمن يرحم ويؤدب
بالعذاب .. يقول إبراهيم لأبيه
﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون
للسيطان وليا ﴾ (مريم - ٤٥)

أما الرحيم فهو الاسم العبر عن الرحمة الخاصة
واقه يجمع بين الاسمين والصفين فهو رحمن الدنيا ورحيم
الآخرة .

أما طه فقد ورد عن السامريين أنهم كانوا ينتظرون نبيا اسمه
طاهاب وعند اليهود الحمر طاهدو هي الشمس ومعناها عندهم
« أبونا »

أما يس .. فهي تعني باللغة الحيشية . يا يسا

بحث في ألفاظ القرآن الكريم

صاحب هذا البحث هو الدكتور بهاء الدين وردى وهو فنان
.. نام بالإضافة إلى كونه طبيباً وكانت له معارض كثيرة في
أمرب وباريس ومدريد ، وهو أيضًا دارس متعمق للهيروغليفية
نهرية واللغة السومرية والحضارت السامية القديمة .. وهذه
.. له الموسوعة الشمولية حاول أن يبحث في الألفاظ
عمرانية ..

يقف مثلاً عند أسماء الله .. فيقول إن من أسمائه القديمة ..
إل . وإيل في اللغة الآشورية البابلية تعني حكومة .. وعرف
.. هذا الاسم قبل الإسلام ، وجاء هذا الاسم في القرآن
.. في أسماء الأنبياء والملائكة مثل إسماعيل وإسرائيل
.. نيل وجبرائيل وعزرائيل وإسرافيل .. كل اسم منها مضاف
.. إيل وإسماعيل « بهذه الصفة » معناه السميع بالله ..

أما فرعون ثم لاوتد الذي جاء ذكره في القرآن ، فقد
فسرها الأقدمون بأنه معنى فرعون ذو الجنود .. وأن الأوتاد هي
الجموع والجيش .. ويقول المؤلف صاحب البحث : إن
الأتار حفظت لنا ... كثيرة على الجدران لفراغته يعذبون
الأسرى بالأوتاد .. من آخرون : إن الأوتاد هي الأبرام .
وربما كان أقرب الناس إلى الحقيقة أن فرعون ذا الأوتاد .. هو
فرعون ذو المسلات والمسلات هي أقرب ما تكون إلى
الأوتاد .. ولقد كان .. سبب الثاني فرعون موسى أربع عشرة
مسلة .. ولعله فرعون ذو الأوتاد بعينه .

أما هامان فهي تطلق لاسم الإله آمون أو هامون أو هامان .
وقد ورد اسم هامان ابن عم الفرعون خوفو وكان هامان
وزيره وهو الذي كلفه من قو بيناء الهرم الأكبر وقد عاش إلى
حوالي العام ٢٥٨٠ قبل الميلاد .

وهناك هامان بن حافى الذى كان فى زمن أخناتون وكان هو
الآخر مهندساً معمارياً وطبيباً وفيلسوفاً .. ومن أقواله
لأخناتون : إذا كنت تريد أن تكون ملكاً .. إذا كنت تريد أن
تحكم مصر ، فكر ببناء عمل فكرك يتحقق فى المعمار وخبالك
سطق فى الحجر ، وكان .. سبب الثاني فرعون موسى له أولاد
عشره يحملون اسم هامان . وبعد وفاته اعتلى العرش من بعده
منفتاح ثم خلف منفتاح علو العرش هامان موسى .. وربما كنت

مسي هي تحريف موسى .. ولعل هذا الهامان الأخير الذى كان
وزيراً لمنفتاح ثم خلفه على الحكم هو هامان المذكور فى القرآن ..
ويكون موسى قد هرب من مصر فى حكم رمسيس الثانى ثم عاد
فى حكم منفتاح ويكون منفتاح هو الذى توجه بالأمر إلى وزيره :
﴿ يا هامان ابن لى صرخاً لعلى أبلغ الأسباب ﴾
(٣٦ - غافر)

ويمثل ما كان هامان مشتقاً من آمون .. فإن العزيز (عزيز
مصر) هو الآخر مشتق من الإله إيزيس .
أما نون فيقول الزبيدي فى تاج العروس إن معناها دواة .
ونون فى الهيروغليزية معناها محيط الماء الأول الذى فيه كل
عناصر الخلق .. وأول ما عبد المصريون من آلهة كان الإله نون
وزوجته نونة ، ونون فى العقيدة المصرية هو الخوض الدائم
للقوى الحيوية ، ونون بحر العلم والحكمة .

أما قوم عاد الذين ورد ذكرهم فى القرآن ، فيقول عنهم
المؤلف : إن عاداً باللغة الآشورية معناها البشر العقارب ، وهم
أقوام أشداء ذوو بأس سكنوا جنوب الجزيرة العربية ثم انتشرو
بالغزو شمالاً وفتحوا الشام والعراق ووصلوا إلى الهند وأطراف
مصر .

ويقول المؤلف : إنه مما يلفت النظر وجود الهة هندية اسمها
عاديات وعادى بودا وعادويتا وعادينات وأنه قرب كلكتا قبيلة

اسمها عادى وآسى تسكن التلال .

ويرى المؤلف أن إرم ذات العماد ليست لها مدينة ، بل هي اسم لقبيلة من قوم عاد يعود أصلها لبطون آرامية .. وأن عاداً نفسها سلالة آرامية .. وجلعاد المذكورة في التوراة هي قلاع عاد جلعاد .

والأصفهاني في كتابه « تاريخ سني الملوك » يقول : إن العرب العاربة عشرة : عاد وثمود وطسم وجديس وعماليق وعبيل وأميم ورهط وجاسم وقحطان . والنبط من البطون الآرامية لمتأخرة وهم من بقايا عاد ومثلهم قبائل جرهم وأخير ابن قحطام وابن الكلبي أن عاداً كانت تتكلم العربية .

وقال أبو عمر أن لسان عاد وثمود وشعيب ومدين عربي كله .

وروى عن علي بن أبي طالب قوله : إن جرهما من بقايا عاد وتقيفا من بقايا ثمود .

أما آلهة عاد فكانت العقرب والنسر والعجل والصقر وقد سمو أنفسهم البشر العقارب ويلفت المؤلف النظر إلى أسماء أماكن في لبنان مثل جب عادين أو بئر عاد ومدينة عدلون قرب صور ونهر عادونيس .

وينقول ابن خلدون أن قوم عاد وصلوا مصر واحتلوا الدنا وبثوا مدينة أون المذكورة في التوراة .. وأنهم جاءوا مصر على

موجتين .. الموجة الأولى قبل الهكسوس ونوجة الثانية مع الهكسوس ، ويستدل المؤلف على كلام ابن خلدون بأسماء مصرية مثل عاديير ماشيد وهي قبيلة تسكن في الدلتا على شفا الصحراء ومدينة عادحو التي جاء ذكرها في البروت .
تلك بعض وقفات مع الرحلة المثيرة التي قام بها ذلك الباحث .. الدكتور بهاء الدين وردى مع ألفاظ القرآن الكريم ..

وهي إضافة جادة وعميقة إلى المنهج لقرآنية وملاححة استطلاعية في بحر الدعات القديمة تكشف وحها جديدا من وجوه الإعجاز القرآني هو الإعجاز التاريخي

الصانع العظيم

هل سأل أحدكم نفسه عن كمية السبابة داخل جسمه ..
مجموع المواسير داخل العمارة التي هي يده ، بما فيه من آلاف
الوصلات والمجاري التي يجري فيها الدم والبول والطعام
والفضلات وعوادم التنفس والهضم .

هل يعلم أن طول مواسير الدم في جسمه تبلغ وحدها ثمانية
آلاف ميل أى أطول بكثير من المسافة بين القاهرة والخرطوم ..
مواسير أكثر ليونة من الكاوتشوك ، وأكثر متانة من الحديد ،
وأطول عمراً من الصلب الكروم ، وفي بعضها صمامات لاتسمح
بالسير إلا في اتجاه واحد .

ثم مواسير الهواء ابتداء من فتحة الأنف إلى الحلق إلى القصبة
الهوائية إلى الشعب ثم الشعبات التي تتفرع وتتفرع وتنقسم حتى
تصل إلى أكثر من مليون غرفة هوائية في الرئتين

ثم مواسير لبول التي تجمع البول من الكليتين لتصب في
الحوض ثم الحالب ثم المثانة ثم قناة الصرف النهائية .
ثم مواسير الطعام من الفم إلى البلعوم إلى المعدة إلى الاثنا
عشر إلى الأمعاء الدقيقة .

ثم مواسير الفضلات من المصران الصاعد إلى المستعرض إلى
المابط إلى المستقيم إلى الشرج .

ثم ممرات الولادة وغرفها ودهاليرها وأنايبها .

ثم مجارى المرارة وحوصلتها ومواسيرها .

ثم مجارى الليمف .. ومواقف الليمف ومحطاته في الغدد
الليمفية .

وهي مواسير تمر إلى جوارها الفضلات وتحميها شبكة من
الأوعية الدموية والأعصاب ، وجيوش من خلايا المقاومة تلتهم
أى ميكروب يمكن أن يتسرب من هذه المواسير في طريق خاطئ
إلى الجسم .

وأنايب العرق .. وبلايين منها تشق الجلد وتفتح على سطحه
لترطبه وتبرده بالعرق .

وأنايب الدموع داخل حدة العين تغسل العين وتجلوها .
وأنايب التشحيم داخل جفن العين تفرز المواد الزيتية لتعطى
العين تلك اللعنة الساحرة .

هذا الكم الهائل من السبابة الفنية الدقيقة المعجزة لتي تعيش

مائة سنة ولا تتلف .. وإذا أصابها التلف أصلحت نفسها
خفسها .

نموذج من الهندسة الإلهية العظيمة التي أهداها لله للإنسان
منحة مجانية منذ ميلاده وتولى صيانتها برحمته وعنايته .
فهل أدركنا هذه النعمة وهل قدرناها حق قدرها .
وكثير من الأمراض سببها أعطال وتلفيات في هذه السبائك .
الإسهال والإمساك والغازات وتطبل البطن ، هي أعطال
وتلفيات في أنابيب صرف الفضلات والزكام انسداد في منافذ
الهواء داخل الأنف .

والناسور هو ثقب في ماسورة الإخراج .
واحتباس البول والمغص الكلوى وآلام الكلى سببها أعطال
في أنابيب صرف البول .

إن تركيبات « الصحى » في جسمك هي التي تصنع لك
صحتك بالفعل .. بل هي صحتك ذاتها .. إن أى نقباض في
ماسورة معوية يساوى صرخة مغص ، وأى ضيق في شريان
القلب التاجي يساوى ذبحة ، وأى ضيق في ممرات الولادة
يساوى إجهاضاً وأى انسداد في قنوات فالوب يساوى عقماً وأى
انسداد في مجارى المرارة يساوى صفراء .

هذا غير مجارى الليمف والدم والغدد ، وهى تنتوع في الجسم
الآلاف ، ولكل غدة توصيلاتها وقنواتها ونظامها ودورها في

صناعة الصحة التى تتمتع بها دون أن ندرك أى عملية تركيبية
معقدة تشترك فيها مئات الأجهزة .

إن الصحة التى نشعر أنها مجرد استطراد لمر عادى واقع ..
ليست بالمرّة أمراً عادياً وليست مجرد واقع مألوف ، وإنه هى
نتيجة تدبير محكم وثمرة عمليات معقدة مرسومة بعناية وهدف .
وإنما يحدث المرض حينما تتخلف هذه العناية وهى قلما
تتخلف .. فإذا تخلفت فلتشرح لنا أسرارها فلما عرفنا معجزة
الصحة إلا بدراسة المرض ، وما عرفنا معجزة الحياة إلا
بالموت .. وبأضدادها عرفت الأشياء .

وفى محاولتنا البدائية فى بيوتنا وعمارنا لى نبينها وهى مجرد
ماكينات رمرية صغيرة لاتصل إلى واحد من المليون من العمارة
البشرية .. غرقنا فى « شيرميه » .. ضحك مجارى القاهرة ،
وتلوث البحر بعوادم المصانع ، واخسئ النيل بالفصلات التى
تلقى فيه ، ووقفنا أمام السيفون نشاء نادى على سبائك ،
واختلط لساخى بالبارد والطاهر باسمه .. وفشلنا فى صناعة
أصغر ماكيت سبائك لاتزيد مواسيره على سعة أمتار . وعرقنا فى
بانىو نصف متر .. وهذه صناعتنا ... صناعته .

وهذه سبائكنا وتلك سبائكه .

وهذه عمارتنا .. وتلك عمارته

وهذا خلقنا .. وذاك خلقه .

١١ الله أحسن الخالقين .
 ١٢ سبحانه الله بصنعة المبهرة وآياته الخالدة في عمارة
 السموي :
 ١٣ لنن اجتمعت الإنس والجن عر، أن يأتوا بمثل هذا
 مايتون بمثله ﴿ .
 ١٤ بسحب على كل آية من آيات الله .. في الكتاب ..
 ١٥ فاق .. أو في أنفسكم .
 ١٦ كبرى المعجزات .

عالم الوحشة « والغربة »

ماهو أكثر شيء يسعدك في هذه الدنيا ..؟
 المال .. الجاه .. النساء .. الحب .. الشهرة .. سلطة ..
 تصفيق الآخرين .
 إذا كنت جعلت سعادتك في هذه الأشياء فقد ستودعت قلبك
 الأبدى التي تخون ويعدو وأتمس عليها الشقاء التي تناقض وتنون .
 إذا جعلت من المال مصدر سعادتك فقد جعلتها في ما لا يدوم
 فالمال يتفقد وبورصة الذهب والدولار لا تثبت على حال .
 وإذا جعلت سعادتك في الجاه والسلطان .. فالسلطان كـ
 علمنا التاريخ كالأسد أنت اليوم راكبه رغداً أنت مأكوله
 وإذا جعلت سعادتك في تصفيق الآخرين فالآخرين يغيرون
 آراءهم كل يوم .

لقد وضعت كل رصيدك في بنك القلق وألقيت بنفسك إلى عالم
الحشة والغربة واستضفت راحة بالك على الأرصفة . ونزلت في
أدق قطاع الطرق .. ولن يهدأ لك بال ولن تعرف طعم الراحة
والنعيم ، لن تعرف أمناً ولا أماناً ، ولن تذوق للطمأنينة طعماً ، حتى آخر
يوم في حياتك ، لأنك أعطيت أئمن مائتك .. أعطيت روحك
لعالم الفرقة والشتات ، ورهنت همك واهتمامك بعائد اللحظة ،
وأمت قلبك بكل ماهو عابر زائل متقلب ، وأسلمت وجدانك
لدهشه وحش الوقت .

وإذا جعلت سعادتك في حب امرأة .. فأين هي المرأة التي لم
تدرك ؟ وأين هو القلب الذي لم يتقلب ؟ أين نجد هذا لقلب إلا
في الخيال في دواوين الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون والذين
هم في كل واد يهيمون .

سبعون ألف نبي في تقدير بعض العارفين عبروا هذه الأرض
وأهوا أقوامهم نفس الشيء وأعادوا عليهم نفس الدرس ورددوا
الكلمات .

والناس مازالوا على حالهم لا يرى الواحد منهم أهد من
أما

الوا على جاهليتهم الأولى يتدافعون بالمناكب على نفس
النفس يرون حاصد الموت يحصد الرقاب من حولهم
لا يدرون .

بل هم اليوم أكثر منها وأكثر تهالكا وأكثر تهافتاً على الأشياء
ويقول لهم القرآن :

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

وفي أنفسكم وأقرب إليهم من حبل الوريد ، غاية الغايات
ومنتهى الأرب ، وقبله المقاصد ومهوى الأفئدة ومتعلق جميع
المعارف .. الحق بداته .. لله سبحانه وتعالى ينوره الأقدس .
الرحاب الأسمى وشميم الجنة ورقيف الملائكة في نفوسهم ..
أقرب إليهم من حبل الوريد .. أقرب إلى الواحد منهم من
نطقه .

يقول الله للعارف الرباني :

ليس بيني وبينك بين .

إلى هذا المدى من القرب .. وإلى هذا المدى من اللطف ..
يبلغ إنسان الرب لعمده .. ولا غربة . ألا تصير النفس
الإنسانية قابلة لتجذبات الأسماء الإلهية فيصبح الواحد منا رءوفاً
رحيماً ودوداً كريماً حليماً عفواً سميعاً بصيراً عليماً .

إلى هذا المدى يستوى الرحمن على عرش سماواتنا
الداخلية ، ويكاشفنا بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد . وهو من
هو .. جامع الكمالات على إطلاقها .. ثم تتولى عنه معرضين
نتدافع بالأكتاف ونسابق بالمناكب حلف كل زائل وتافه .
ونتكلم عن الحب . وفي عمق نفوسنا من هو أولى بالحب كل

لاداعي لكل هذا المسباق والقتل على السلطة فلن تزداد بذلك

قوة .

أطمئن قليلاً أيها الزمن وأعرض عن هذه الغاية التي يتعاضدها فيها الكل بالمخالب والناب ، قل كلمتك والزم معرفتك واعمل على شاكلك . وخض البحر فلن تبطل واعبر أرض القرية والوحشة فلن تستوحش فليست وحدك فإله معك . وأيا كنت فهو معك .

لا تقف مع الواقفين أمام فائزينة المال والجاه والنساء الباهرات

والحب ولشهرة والسلطة وسائر غويات الدنيا .

فأنت غنى بما في داخلك عن كل هذا .

لا يكن مبلغ همك أن تحب هذه وتلك ، وإنما ليكن همك بجموعاً على الله إهلك ، محبباً لك مطلقاً ودائماً وأبد .

وحسبك من المرأة التي تختارها المودة والرحمة وحسن

المعاملة .

تعلق القلب لا يصح إلا لواحد ، واشغال لفئة لا يجوز . لا

لواحد هو الله وحده جامع الكمالات .

إنما جعل عرش القلب ليستوى الرب عليه وحده وليس لهذه المرأة أو تلك .. الصباية لا تليق بالعارف الكامل .

الملك وحده وليس لأي عابر سبيل ، والله هو سركاء عن الشريك .. وحق على من عرفه حق معرفته لا بعد غيره

١٥٥

الطيب .. بل واهب الطيب لكل محب ومحبوب وسر الطيب في كل محب ومحبوب .. بل عين القيسة في كل ماهر قيم .. وعين الجمال في كل جميل .

وسوى مرضين تجري حلف بريق اللسخطات ونشئت وتورع وتجاهدنا النوايات وتتمزق إلى شتات وغوت في وحشة وغربة وعصو لنا عما جمعناه صفر .

والله أقام شريعته خيرة علينا وعلى ما أودع فيها من روحه ورحمة بنا حتى لا نضيع ، والشيطان يحاول أن يحجبنا عن هذا النراء الداخلي حسداً وحقدًا على ما فاضلنا الله به .. ونعني نختار صحبة العدو على الصديق .. ونستمع إلى العدو ولا نلتفت إلى الصديق ، ونلازم العدو ونهجر الصديق .

وما أكثر ما قتل الأقوام من أنبيائهم وأهل الغفلة من شهدائهم .

وعالمنا اليوم أشد في جاهليته وأعمى في ماديته من كل ماضى من عوالم هو وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ .

في داخلك الشاطئ والمرساة ويز الأمان .
سند الضمان فينا ولسنا في حاجة إلى التأمين على حياتنا في بنك خارجي لا داعي لكل هذا اللهاث المبعثون على الجميع والتمسك ولا كتناز .. فلن تزداد بذلك أمناً .

١٥٤

ألست تقطعه فيصلك ، وتكفره فيرزقك ، وتعصيه فيغفر لك .
وتهجره فيتودد إليك .. وهو من هو المتعال ذو الجلال والجمال ..
فأين هو من هذه وتلك .. ألا يكفيك أن يابه مفتوح أبداً وعفوه
مناد عليك دائماً ؟

ألا يحرك ذلك كوامن الشوق فيك ؟
ألا يثير فيك من الوجد مالاتثيره هذه وتلك من أشباح تراية
فانية ؟

ألا تعود فتتظر حولك ببصيرة .. وتنظر في داخلك بإلهام ..
قبل أن يحرفك التيار إلى عالم الوحشة وإلى البحر انطام الذي
يتخبطه الشيطان من المس ؟
ألا تفريك هذه الكلمات بلحظة تأمل وبوقفة مع النفس تعيد
فيها النظر .

الفجوة بيننا وبينهم

هو .. دكتوراه في الكيمياء من جامعة أسيوط .. يحمل معه
جلالة الريف وبساطته وطيبه وهي خريجة آداب قسم سياحة
تحمل معها حقيبة كريسيان ديور وتنظر دائماً غرباً إلى باريس
لتأخذ عاداتها وفيمها وموضاتها .. في حين هو ينظر شرقاً إلى مكة
معلق القلب والفؤاد بالكتب القديمة بصراء والمدائح النبوية
وحلقات الذكر في سيدى أبو العباس .
وهو في زيارة للسويد والنرويج مدعواً في مؤتمر علمي ..
وهو يصحب زوجته في شهر عسل .
وهما بهيطان معاً درجات الفندق الفخم في ستكهولم .. وكلما
مر بهم تزيل أوما برأسه في بحية .. فصعط على ذراعه هامة .
- رد على التحية بإيماءة برأسك أنت الآخر .. أترى كم
هم مؤدبون .. تعلم .. إذا حييتهم بتحية فردوا بأحسن منها ..

أترى الطائفة حولك ، كل شيء حولك يلعب .. والأرض كأنها
مرآة .. المواعيد بالدقيقة والثانية .. الكلمة واحدة كأنها ميثاق ..
لا غش ولا احتيال ولا مكر ولا تعقيد .. المرأة هنا حرة رشيدة
مستقلة الإرادة ، تملك مفتاح عربتها ومصاح شقتها وتخصص
الحياة بلا خوف وتختار زوجها في حرية .. وتعمل في أى مهنة
تحب .. حارسها ضميرها وحده .. يدها مع يد زوجها على دفعة
القيادة .. لا رياسة لأحد على الآخر ولا تحكم ولا استبداد .. لها
نصف مايلك إذا افترقا .. هكذا يضمّنون للمرأة مستقبلها هنا
ويؤمنونها من غوائل الدهر وطغيان الرجل .. دستور الزوجية
احترام متبادل ومساواة في الحقوق وثقة وحرية من كل طرف في
الآخر ولا تدخل ولا فصول .. ولا مساءلة .. ولا محاكمة .. أين
كنت بالأمس .. ولماذا جئت متأخرة ؟ بذكرة طائرتها في جيبيها
وجواز سفرها في حقيبتها .. تسافر إلى آخر الدنيا وحدها ..
حرة .. رشيدة مستقلة .. حارسها ضميرها وهذا يكفي .. انظر
حولك وتعلم .. هذه هي القيم التي تحتاجها في مصر .. لصنع
مصرًا جديدة وحضارة جديدة ومدنية جديدة هذه فرصتك
لتغتسل من أتربة الريف وتجدد شباب عقلك .. وتشرب هذه
القيم العصرية .. لا أحب أن أصادر على تفكيرك .. ولكني
أطالبك فقط بإعادة النظر وعدم الرفض المورى لأى جديد ..
لا أحبك أن تشيح بيدك وتقول كلمتك التقليدية هذه دوله

الكفر .. فأين الكفر فيما ترى .. هل النظافة كفر .. هل الأمانة
كفر .. هل الوفاء بالوعد كفر .. هل النظام كفر .. هل العلم
المتقدم كفر .. هل الصناعة كفر ؟
ومرت امرأة بيدها كلب وأومات برأسها في تحية فرد صاحبنا
بإيماءة أخرى من رأسه .. فضغطت صاحبتة على يده في حب
وقالت وهي تلفت نظره إلى الكلب .
- أترى أصابع الكواكير كيف صفت شعر هذا الكلب ..
والفيونكة الحمراء الجميلة .. هل العطف على الحيوان الضعيف
كفر .. هل رأيت المستشفى الأنيق أمام مدق .. إنه مستشفى
للكلاب ودار حضانة للكلاب تترك المرأة كلبها في الصباح ثم
تعود لتأخذه في المساء .
قال الرجل الريفى وهو يمز رأسه غير مصدق .
- شيء عجيب .
- هل تعلم أن هناك أكثر من عشرين صنف لحوم معبئة
للكلاب .. وأن المحل يترك لك الحرية لتعرضها على كلبك
ليجربها ويختار منها مايجب .
قال الرجل الريفى وهو مازال يمز رأسه .
- شيء عجيب .. إذا كانوا يصنعون هذا بالكلاب فماذا
يصنعون لبني آدم .
- سوف ترى يا عزيزى .. لا تتحمل .

- إذا كان هذا مقام الكلب في الأسرة .. فماذا يكون مقام الأسرة في المجتمع .

- سوف ترى بنفسك الليلة .. ألسنا مدعوون معاً إلى تلك العائلة السويدية ؟

- نعم .. نعم .. لقد دعانا الدكتور كرافت على فنجان شاي لبعده عن مصر وعن أخبار مصر .. فهو عالم في المصريات كما نعرفين .

- بل نريده أن يحدثنا هو عن بلاده .. وعن المعجزة الأوربية .

- نعم .. صدقت .

وفي المساء كان الدكتور كرافت يد يده ليصافحها في حرارة وهو يقول :

- أخيراً جاءت مصر إلينا .. أخيراً أصافح أحفاد حتشبوس وأختاتون يدا بيد .

قال الرجل الريفى :

- لا أظن فقد اختلطت الأنساب كثيراً في بلادنا يا عزيزى الدكتور بقدر ما تعاقب عليها من فرس وروم ومقدونيين وهكسوس وعرب وإنجليز وفرنسيين .. لا أظنك اليوم تجد حفيداً واحداً حقيقياً لحتشبوس أو أختاتون .. لن تجد هذا

الحفيد إلا في مقابر تل العمارنة في تابوت سرق كل ما فيه .. ولم يبق إلا الجثة ..

قال الرجل وهو يتنهد آسفاً .

- صحيح .. هذا مؤسف .. لم يبق لنا إلا تاريخ ومعابد

وبرديات هيروغليفية .

ورشف الدكتور كرافت رشفة هادئة من فنجان الشاي .

- لو كنتنا هنا أمس الأحد .. لسعد أبواى بكما كثيراً .. فهما

مثلى يحيان مصر كثيراً ويتسلمان أخبارها .

قال الرجل الريفى .

- وأين هما ياترى ؟

- هما عجوزان لطيفان .. وهما في هذه السن التى يصعب

فيها التفاهم والتواصل بينهما وبين باقى الأسرة وحتى بينهما وبين

بعضهما .. ولهذا انتهى بها المطاف إلى دار للمسنين .. لكل منها

غرفة منفصلة وكن منها يقطع النهار فى حل الكمات المتقاطعة

وشرب النبيذ والاستماع إلى التلفزيون ومشاهدته .. وهذا شأن

الكبار هنا حينما يتقدم بهم السن .

قال الرجل الريفى فى استغراب .

- والصفار .

- بعد الساعة عشرة يذهب كل واحد وشأنه .. لى ثلاثة

إخوة وأختا رابعة تفرقوا فى القارات الخمسة وتفرقت بهم

قال الرجل الريفى وهو يقلب كفيه فى عجب .

- هذا شيء مؤسف فعلا .. هذا قدره .

وراح الدكتور يسأل صاحبا ماذا يعنى بكلمه القدر .. وقال إنه سمع الشرفيين يتحدثون كثيرا عن القدر .. ولا حفظ أنهم يدسون هذه الكلمة فى كل شيء .. وهذا أنت تدسها حتى فى شئون الكلاب .. صدقنى أنا لأفهم .

وأخذ الرجل الريفى يتكلم فى إسهاب عن الإيمان بالله وبالقدر .. وأن الله بيده ماضية كل الخلق وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها .. سواء كانت بهيمة أو كلبا وحشرة .. وأنه مامن ورقة تسقط إلا يعلمها .. وما من رطب ولا يابس إلا عنده فى كتاب .

وقال الدكتور شاخت فى برامة « شديدة » .

- ولكن أين هو ؟

- من ؟

- الله الذى تقول .

فسكت الرجل الريفى وانقعد لسانه دهشة من السؤال العجائى ، ثم عاد يقول ببطء

- الله لا يقال عنه متى ولأين .. لأنه هو الذى خلق الذى

والأين .. هو الذى خلق الزمان والمكان ولا يخضع لها كما نخضع .. هو فوق الأين .

المعاصر .. الأخ الأكبر تزوج من امرأة يوزنية فى كمبوديا ، والأصغر قطعت ساقه فى حادث وهو يعمل بارمان فى كلكتا ، والأخ الأوسط يشتغل فى مصنع سلاح فى جنوب أفريقيا .. أما الأخت فقد تزوجت من فيتنامى ولم تنجب .. ثم افترقت عن زوجها .. وأنجبت ولما تكرر له الآن كل وقتها وتعمل مدرسة يانو .

- وزوجها .

- إنها لم تزوج بعد الفيتنامى .. لقد أنجبت ولدا بعد قصه حب ، وكما علم هذه الفورات الماطفية ستهى إلى لا لاشيء وتبدأ المشاكل .. وهذه مسائل عادية تحدث الآن كثيرا .

- ألا تلتقون ؟

- غير بطاقات الكرسناس وهذا يا عيد الميلاد كل عام . ودخل الكلب وكانت حول بطنه ضمادة .

واحتضنه الدكتور كرافت فى حنان بالغ .. وراح يرت على رأسه ويقبله .

- المسكين .. عملنا له بالأمس رسم فلب كهربائى وفحص بالاشعة والأشواخ الفرق المصوتية وانضج أن عنده ورم سرطانى .. وقام المراح منذ أسبوع باستئصال الورم بحاج . صدقنى لقد حزت من أجله كثيرا .. ولم ألق طعم النوم منذ أيام ..

فبدأ على الدكتور شاخت أنه لا يفهم ، ولكنه قال في احترام

شديد :

- ألا يمكن أن نتكلم كلاماً أكثر وضوحاً وواقعية .. ألا يمكن أن نقول لى عن الله شيئاً ملموساً .. صدقنى أنى فى دهشة من إيمانكم العميق أيها المصريون .. إيمان بطول سبعة آلاف سنة .. إنه شيء عجيب يدهشنى .. منذ سبعة آلاف سنة وأنتم تيسرون للموت ولا تعيشون للحياة ، ولكن لما بعد الحياة .. وكأنما ، أنتم متأكدون تماماً من كل شيء ألا يدهشك هذا .. من أين لكم بهذا اليقين بأن بعد الموت شيء .. لكم أتمنى أن أرى الله كما ترونه » فقال الرجل الريفى فى بساطة :

- إنى لا أرى غيره .. أراه فى تفتح الزهرة وابتسامة الوليد وأراه فى الصواعق وأرى مشيئته فى حركة التاريخ ، وأرى يده فى قبضة الحاذية التى تضم شمل الكون وتمسك بالمحرات وتحمل السموات بلا عمد .. وأراه أقرب إلى من نفسى بل أقرب إلى من مطلقى ، وأراه فى العماء خلف كل شيء .. فى غيب الغيب . لا يوصف ولا يحد .. سبحانه ليس كمثله شيء .

وحاول أن يبحث عن كلمات تقول أكثر وتفصح أكثر وتحسد أكثر .. كلمات يعبر بها الفجوة الهائلة بينه وبين محدثه ولكن لم يجد .

كانت الفجوة كبيرة .. فجوة بين حضارتين .

١٦٤

حضارة لا تؤمن إلا بما ترى وتلمس وتحس وتسمع . حضارة مادية تبدأ من المادة وتنتهى إلى المادة وتشيد من المادة معجزات وخوارق واختراعات وسفن فضائية وقنابل وتصنع بها الدمار والعمار .

وحضاره أخرى توافقه حالة منطعة إلى الغيب تتصنت بالقلب والروح على ما لا يرى وما لا يسمع .. وتعبر المادة أبداً ودائماً إلى ما وراءها .

وسكت الرجل الريفى ولم يجد كلاماً يقوله ليعبر به الفجوة وأخذ يعيد ما قال وكأنما يحجب نفسه .

- إنى لا أرى غيره .. لا أرى إلا الله . سبحانه لا سواه .. قال الدكتور كرافت .

- إنى لا أملك إلا أن أحترمك .. ولكنى لا أفهمك وفى ذلك المساء فى الفراش . كان الرجل الريفى يحدث زوجته وهو يخطب كف بكف .

- أرايت .. إنه لا توجد سيرة .. لقد انفرط كل شيء .. البنت تحمل سفاحاً ، والأخوة سرقوا فى أركان الأرض ليواجه كل منهم مصيره بلا عون وبلا سند ، والأب والأم منبوذان يعيشان وحيدين فى دار للمسيئين . يم يبق إلا الكلب أقاموه صنماً بديلاً يبذلون له الود والحب حان والعبادة التى خلعت منها الحياة .. ويحاولون أن يخلقوا بى حنى والحكمة التى سلبوها كل

خسء .. إن كل ماتشاهدينه في الفندق من تحبات ومجاملات
وآداب مائدة وسلوك مهذب ولياقة .. كلها تعبيرات فارغة
لا تدل على شيء ولا تحتوى على مضمون ... نها مجرد حياة
تلهت وراء متع اللحظة .. ثم موت ثم تراب ثم عدم .. ثم
لامنى .. ولا حكمة .. وإنما عبث .

ولم يعجب زوجته الكلام وأعطته ظهرها .. وقلت كالعادة :
- لا تتعجل فى الحكم .. ولا تستخرج حكما تاماً من لقاء
عابر . انظر حولك .. إنك فى عالم كعرائس الخيال أبهة ونظافة
وأناقة وجمالاً وعلماً وصناعة »

قال فى هدوء وقد أعطاها ظهره هو الآخر :
- كل هذا يمكن أن ينهدم فى لحظة .. حينها تهدم القيم التى
تمسك به .

كل هذا يصبح مثل النقش على الماء :
قالت فى مرارة .

- وهل عندنا فى مصر قيم .. هل عندنا أخلاق ؟

- صحيح لقد أصابت عدوى الانحلال الكثيرين فى بلادنا ..

وصحيح عندنا فساد .. ولكن مازال عندنا أولو بقية من أهل
الحير يعرفون الله و يأمرون بالمعروف وينهون عن المكر ويقومون
الليل وسبحون النهار وهؤلاء هم عمد الأرض وأركان الدنيا
يحفظ الله الدنيا من أجلهم ويدونهم لايعود لها بقاء .

قالت وهى مازالت تنظر غربا وقد أعطته ظهرها .
- بل أركان الدنيا هنا .. ولكنك ترفض أن تراها .. وأعمدة
الحياة حولك ولكنك تنكرها .. وناطحات السحاب تنطح السماء
وتصنع الأقدار للألوف .. والعقول الألكتروية تدبر المصائر
للملايين ، ومائسميه انحلال الأسرة هو روح الحرية ..
والمغامرة .. ولكنك لا تريد أن ترى ولا تريد أن تغير من نفسك
شيئا .

قال وهو مازال يعطيها ظهره وينظر شرقاً .

- نسيت أن صانع كل هذا العمار .. ترك نفسه خراباً .. وأنه
يوشك أن ينتحر وأن يقتل نفسه بما صنع .. وأن عمد الدنيا فى
نظرك وأركان الأرض يوشكون أن ينقضوا على بعضهم البعض
بالأسلحة النارية والقنابل النووية .. وأنهم لوثوا من حولهم
لنساء والماء والهواء .. كما لوثوا عقولهم بالخمور والمخدرات ،
ولوثوا أرواحهم بالكفر والجحود .. وأن ماترينه براقا حولك هو
المرور ومتاع الغرور .. وخيال اللحظة .. ونشوة اللحمة
البارقة .. وأقرئى التاريخ .. وانظري خلفك .. بل تحت
قدميك .. بل فى التراب تحتك .. حيث اندثرت أمم
وأباطوريات .. وحيث انتهى عماليق طاولوا الشمس وخرقوا
السماء .

ولكنها لم تنظر إلى وراء ، ولم تلتفت إلى التراب تحت قدميها

وإنما ظلت ناظرة مبهورة دائما إلى غرب .. على حين ظل هو
ناخضا إلى الشرق .. إلى مطلع الأنوار .. وقد أعطى كل منهم
ظهره للآخر .. وبينها خيط رفيع .. رفيع .. هر عقد زواج ..
بوشك أن ينقطع .

نهر الكوثر

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾

هذا خطاب من الله لنبيه محمد ﷺ ، وهو أيضا خطاب من
خلاله لنا جميعا . والكوثر هي صيغة المبالغة التي هي فوق الكثير
والأكثر فهناك الكثير ثم الأكثر ثم الكوثر وهي الغاية من الكثرة
من العطايا والمسخ والمواهب والنعم التي أفاضها الله على الإنسان
الكامل والتي هي في الوقت ذاته امكانية بطننة في كل إنسان
يستحقها وراثته عن الكامل إذا سار على قدمه .

والآية لها معان متعددة - سطر إلى الكمال الجسدى والكمال
النفسى والكمال الروحى الذى هو امكانية متاحة لكل إنسان إذا
اجتهد فى نواله . وبذا نظر - إلى الجسد وإلى البناء المادى
للإنسان ماذا ترى ؟ ترى حلق قد أعطى لإنسان أكثر من
سبعة أضعاف احتياجاته فهو قد أعطاه رتتين مع أن بإمكانه أن

طاقات أخرى كأمثلة أخطر بكثير من هذه الطاقات التي درجها بيلوان السريـك .

وما نقرؤه عن وسطاء يستطيعون تحريك عقارب الساعة دون لمسها أو ثني قضيب من الحديد بمجرد تركيز الإرادة عليه أو قراءة الخواطر على البعد وما نعلمه من غرائب التنويم المغنطيسي . وما بلغنا من كرمات أهل 'لشماعية' والصلاح من الأولياء . كلها مجرد أمثلة أخرى لطاقات كامنة في عقولنا ونفوسنا ، فلا غرابة إذا قيل لنا إن محمداً ﷺ وهو 'إحسان' الكامل كانت لديه القدرة على الاتصال بالملك جبريل ، وأنه كان يتلقى عن ربه وحياً وأنه أسرى به جسداً وروحاً إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات الملحق حق ، بلغ سيرة المنتهى وأشرف على قارب قوسين من لقاء ربه . فذلك أمر لا يستغرب جلي من بلغ الغاية من الكمالات الذاتية فكان لرحل الآمين والصديق الورقى والمقاتل الشجاع والقاضي العادل ، والمتكلم السليخ والزوج المحب والآب الممنون والإنسان القدوة والقائد الحكيم ولنسى صاحب الدعوة .. ونأني عليه ربه قاتلاً :

هو وإنك لمعلم خلق عظيم .
ماى عرابه فى أن يكون هو السموذج والمثال وصاحب الكوثر بالفعل .

ويتقدر نصيب المثال والسموذج ويتدر حظه يكون حفظ كل منا

يعيش بربع رنة واحدة وأعطاه كليتين مع أنه بإمكانه أن يعيش بأقل من ثلث كلية واحدة ، وأعطاه كبدًا ولو تليف سبعة أجزاء من ثمانية من هذا الكبد لاستطاع أن يعيش بالباقي .. أما الجلد لقد أودع الله فيه إمكانية التجدد إلى مالا نهاية .. أما الدم فقد أودع فيه إمكانية التجدد بحدود ستين مليوناً من الخلايا في الساعة .

وقد جاءتنا الأنباء الطبية أخيراً بأن الإنسان يستطيع أن 'مسن' بخمسة في المائة من مادة عده وهذا ما يحدث بالفعل في الحالات التي نعيش من مرضى التمدد المائى لعزف الدماغ ، فأحياناً يضغط هذا التمدد المائى على المخ فيتلف ٩٥٪ من مادته ولا يبقى للمريض إلا ٥٪ من عده ، ومع ذلك يعيش المريض وسوق في عمله ودراسته .. وتلك معجزة .

ويقول علماء النفس والأعصاب إننا نستخدم عشرة في المائة فقط من إمكانيات جهازنا المعسى .
والكلام خطير والسؤال الذى يترتب عليه . ماذا يمكن أن 'مسن' الإنسان لو أنه استخدم طاقات جهازه المعسى كلها إنه 'فعل' هو ما نرى جانباً منه في بيلوان السريـك .. وما يستطيع أن 'مسن' يديه ورجليه .. وأحياناً بأستانه التي يجربها أوييسا وهي 'أمثلة على طاقات مادية كامنة أمكن تدريبها ، وفي عقولنا

إذا اجتهد في تكميل ذاته .. وكل منا وارث بقدر اجتهاده ..
ألم يقل لنا العلم الثابت إن الواحد منا يعيش بعشرة في المائة
من مواهبه وملكاته وأن تسعين في المائة من هذه الملكات معطل
أو كامن أو غير مكتشف .

لقد نقل الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من اليمن
إلى فلسطين في طرفة عين .. واستطاع سليمان أن يكلم النمل
والطير وأن يستمع إلى تسبيح . الجبال ، وأوق العليم الذي
يحكم به مملكة الجن ويسخر به مرده الشياطين ، كما أوق ذو
القرنين الأسباب التي يفتح بها مشارق الأرض ومعاربها ، كما
أعطى عيسى القدرة على إحياء الموتى وعلى شفاء العمى واليكم
والصم .

وذلك بعض الكوثر وبعض الكامن من المواهب
والاستعدادات في الإنسان الكامل الذي خلقه الله في أحسن
تقويم ونفخ فيه من روحه فأصبح قابلاً لما لا نهاية من الفيوضات
الربانية ، وذلك كوثر الدنيا ، وهو غير كوثر الآخرة الذي قال
عنه النبي ﷺ إنه .. حوض من شرب منه لا يظمأ بعد شربه
أبداً وهو حوض اختص به الله محمداً وأمه وهو من الأسرار
الغيبية بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..
فهنيئاً لمن ورد ذلك الحوض .. وهنيئاً للقلة المسلمة المؤمنة بما
وعدها الله ورسوله .

أما الكثرة الكثيرة التي قضت على نفسها بالحرام بما أسدلت
على عيونها من حجب البعد والغفلة وظلام الخطايا والذنوب
وركام ، الكبرياء والشرك والكفر فإن الله لم يفلق أمامها باب
المغفرة ولم يسد باب الرحمة وإنما فتح لها نوافذ التوبة على
مصاريعها حتى غرغرة الموت .

ألا يحرك فينا هذا الكرم .. الحب الذي ليس كمثله حب
لنشمر السواعد ونعمل ونجتهد ليكون لنا الحظ في ميراث
الكوثر .. بل البعض القليل من هذا الكوثر . بل قطرة واحدة
من نهر الكوثر .

وإن نهر الكوثر ليجرى فينا . أقرب إلينا من حل الوريد
وأنة ليس عنا بعيد .

وظل يدعو أراذل الكفار قرابة الألف عام ، ثم استقل سفينته مع
الصحبة القليلة المؤمنة وركب الطوفان ، وورسف عليه السلام
صارح الفتنة والغواية في قصر العزيز ، وصبر على المسجن كما
صبر من قبل على غير الإخوة وعلى عذاب الجب ، حتى جاهد
الحكم والملك ، وعيسى عليه السلام قال لاتباعه : « ما جئت
لألقى سلا ما بل سيفا ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ختم النبوة
بسيرة حافلة بالكفاح والمبارك والتزوات ، وكان يعبر طبيب
المعمره في سبع ليال من الزحف إلى تبوك وقد جاوز الستين من
العمر .

الدين ليس فيه هذا النوع السلبى من الطيبة .. وليس فيه
الاستسلام والخنوع والخضوع والاستكانة والذل .. والذين
امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصوفاً أضطروا فهم التصوف
أيضا ، وانحرفوا به عن ثقافته الإسلامى ، فالتصوف الذى
لا يهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب .

وإذا كان الاستعمار قد شجع في الماضى بعض الطرق
الصوفية التى تزوج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة ، فإن
الكثير من الصوفيين الأصلاء لم ينفذوها ومن هؤلاء خرج جيش
السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسى في الشمال الأفريقى وقد
حمل المصحف في يده والسيف في اليد الأخرى .

ولا أعرف ما هو النموذج القرآنى لهذا النوع السلبى من

الإسلام فتوة

هناك نوع من الناس لاتففع فيه ولا ضرر منه .. نوع يمشى
إلى جوار المائط ولا يشارك في شيء .. نوع متواكل سلبى
لا متميز لائبال وقد تعارفنا على أن نطلق على هذا النوع اسم
« الرجل الطيب » لأنه يعيش في حاله وقد كف عن الناس غيره
وشره وطوى صدره على همومه وآثر ألا يزعج أحدا .. وتصور
البعض خطأ أن هذا الرجل هو نموذج المسلم المتدين الصالح .
وقد فهم هؤلاء الناس الاسلام فهما خاطئا .. فالإسلام ليس
ضعفا بل فتوة وإيجابية .. الإسلام ليس خنوعا وخضوعا وسلبية
بل موقفا ومبادرة .. وإبراهيم التنى عليه السلام حطم الأصنام
ورواجه بطش النمرود ، وداود عليه السلام حارب جالوت وانتصر
عليه ، وموسى عليه السلام واجه جبروت الفراعون وحده ، وقاد
اليهود في رحلة التيه في سيناء ، ونوح عليه السلام صنع السفينة

الطيبة .. لعله هاييل الذى رفض أن يدافع عن نفسه حينما بسط أخوه قابيل يده ليقتله فقال الأخ الطيب :

﴿ لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ﴾ (٢٨ .. المائدة)

فأثر أن يموت مظلوما على أن يدفع عن نفسه الظلم ، وترك القصاص لله .. وجعلها سنة للضعفاء من بعده .. ولكن هاييل لم يرد يده عن ضعف ، بل عن قوة وكان بإمكانه أن يبطش بأخيه ، وإنما اختار التنزيه فى اللحظة الفاصلة فنزه يده أن تريق دم أخيه وتلك ذروة فى القوة .. فعل ذلك خوفاً من الله وليس خوفاً من أخيه ، وهو نفس المعنى المراد من كلام عيسى عليه السلام فى الإنجيل .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر .. فما أراد المسيح بكلامه أن يصبر المظلوم عن ضعف ، بل يصبر عن قوة ويعف عن قدرة .

وهو نفس مذهب غاندى « الالهسا » أى عدم رد الأذى بمثله .

وقد انتصر غاندى على الإنجليز بهذا المذهب وأخرجهم من الهند .. لأن مفهوم المذهب كان القوة والقدرة وليس الاستكانة والذل .

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ هم الأقوياء وليسوا الضعفاء والحديث يوضح هذا المعنى فيقول : « المؤمن

القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » فهو لم يحرم الضعفاء نصيبهم من الخير ولكنه قال إن المؤمن القوى أحب إلى الله .

والقوة مطلوبة ولاشك فى هذا العصر المادى الذرى الذى أوشك أن يتصارع فيه العماليق .. والضعف سوف يكون مهلكاً قاضياً على أصحابه .

وفى مواجهة الصلف الاسرائيلى ومظاهرات القوة التى تباشرها إسرائيل فى البر والبحر والجو .. لا يصح للعرب أن يقفوا هذا الموقف الضعيف المفكك المتهالك .. وإنما لابد من وحدة وإعداد واستعداد ، وجمع للشمل وشحن للهمم وتشجير للسواعد ورفع للقدرات العسكرية للذروة .

إن مفهوم « الرجل الطيب » بمعنى الرجل الذليل المستكين ، يجب أن يشطب من القاموس العربى ، ومن القاموس الدينى تماماً ، فهو ليس مفهوماً دينياً وليس مفهوماً إسلامياً ، بل هو مفهوم استعمارى غسلوا به مخنا وروجوه بيننا خلال سنوات الاستعباد والاحتلال .. وهو اختيار الكسالى والجبناء والضعفاء ..

وعلىنا أن نفيق على فجر جديد ومفهوم جديد يلائم العصر

الجديد والجاهلية الجديدة ذات المخالب والأنياب .

وفى عصر الذئاب لا يمكن أن نكون دجاجاً وحملانا . والغد

الذى نسير إليه سوف يكون غداً مخيفاً .. غداً لا إختيار فيه :

إما أن يكون الواحد منا آكلًا أو يكون مأكولًا . ولا طريق ثالث .

إنهم في إسرائيل يردون على اللطمة بقنبلة ناسفة ، وإذا أصاب رصاص القناصة فردًا واحدًا منهم قاموا بتمشيط الجبل كله ونسفوا المنازل وهدموا البيوت وسوها بالبولدوزرات . لم يعد قانونهم السن بالسن والعين بالعين كما تقول التوراة .. ولكن السن بطقم الأسنان كله . والعين بألف عين .. والرأس بأمة . ويسمون ذلك استراتيجية الردع . وهم ولاشك تعلموها من النازية . وفي مواجهة هذه الاستراتيجية لاتصلح فلسفة « الرجل الطيب » ولا إدارة الخلد الأيسر بعد الأيمن .

ولم يردع بغى النازية إلا بغى أشد منه ، ولن يصلح للباس الشديد إلا بأس أشد منه ، ولست أدق طبول الحرب ولا استنفر لقتال .. فالوقت غير مناسب والرياح السياسية غير مواتية ، والعرب اشتاتًا لانغير لهم ولا عزم ولا كلمة . وإنما أقول .. اجتمعوا وتشاوروا واستعدوا واحتشدوا ، اخلعوا عباءة الرجل الطيب ، انفضوا عنكم المسكنة .

ولأن يأتيكم الموت في كرامة أفضل من أن تكرهوا عليه في مذلة ، وأن الموت لآت ياسادة شتم أم أبيتم . واذكروا لى اسم رجل واحد هرب من الموت منذ آدم .

فهرس

صفحة	
٣	الدين .. ماهو ؟؟
١٠	الصلاة
١٦	الصيام
٢٠	الزكاة
٢٧	الحج
٥٥	كلمة التوحيد .. ماذا تعنى
٦٦	الحب
٧٢	المرأة
٧٧	احترام الجسد
٨٢	الشريعة متى .. وكيف ؟
٨٩	عن التصوف
١٠٧	الفردية والتفرد
١١٤	الدين والعلم
١٢١	الملك والملكوت .. وأنا

صفحة

١٣٠ عن التطور
١٤٠ بحث في ألفاظ القرآن الكريم
١٤٦ الصانع العظيم
١٥١ عالم الوحشة « والغربة »
١٥٧ الفجوة بيننا وبينهم
١٦٩ نهر الكوثر
١٧٤ الإسلام فتوة

AL-MOSTAFA.COM